موسوعة القيم ومكارم الأخلاق العربية والإسلامية

(٤٤)

الفصاحة

الباحث الرئيسي ورئيس الفريق العلمي
أ.د. مرزوق بن صنيتان بن تنباك

www.mtenback.com

دار رواح للنشر والتوزيع

ح مرزوق بن صنيتان بن تنباك ، ١٤٢١ هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

موسوعة القيم ومكارم الأخلاق العربية والإسلامية/مرزوق بن صنيتان بن تنباك ... [أخ]. الرياض.

٥٢ ج؛ ١٧×٢٤ سم

ردمك : ٤-١٨٥-٣٨-٩٩٦٠ (مجموعة)

×-٢٢٩-٣٨-٩٩٦٠ (ج ٤٤)

١- الأدب العربي – موسوعات أ- ابن تنباك ، مرزوق بن صنيتان (م . مشارك)

ديوي ٨١٠,٣ ٢١/٢٠٧٨

رقم الإيداع : ٢١/٢٠٧٨

ردمك : ٤-١٨٥-٣٨-٩٩٦٠ (مجموعة)

×-٢٢٩-٣٨-٩٩٦٠ (ج ٤٤)

www.mtenback.com
موقع الدكتور مرزوق بن تنباك

www.mtenback.com

فهرس المحتويات

الموضـــوع	الصفحة
توطئة	٥
الفصاحة لغةً	٧
الفصاحة اصطلاحًا	٧
الفصاحة قيمة اجتماعية	١١
أثر فصاحة اللسان	٣٦
القدرة على التعبير ومراعاة المقام	٥٣
اكتساب الفصاحة	٥٩
خصائص الكلام الفصيح	٦٨
عيوب الفصاحة	٨٣
اللُّغة الفصحى وأثرها	٩٤
الفهارس	١٠٥

موقع الدكتور مرزوق بن تنباك
www.mtenback.com

www.mtenback.com

فَإِذَا رُزِقْتَ خَلِيقَةً مَحْمُودَةً فَقَدِ اصْطَفَاكَ مُقَسِّمُ الأَرْزَاقِ

فَالنَّاسُ هَذَا حَظُّهُ مَالٌ وَذَا عِلْمٌ وَذَاكَ مَكَارِمُ الأَخْلَاقِ

حَافِظ إِبْرَاهِيم

موقع الدكتور مرزوق بن تنباك
www.mtenback.com

www.mtenback.com

توطئة:

فصاحة اللسان قيمة اجتماعية وفضيلة إنسانية توارثتها العرب وافتخرت بهـــا وجعلتها معياراً للتقدمة والتفضيل؛ لأن الفصاحة عندهم جمال وبهاء ومهابة، وهي أداة من أدوات الرجال بها تكتمل شخصياتهم، وتهيئهم لأداء أدوارهم في الحياة. فالفصيح المبين إذا تكلم أبلغ، وإذا خاصم غلب، وإذا بعث في سفارة أنجح، وإن دعا إلى سلم أو إلى حرب كان لفصاحته فعل السحر في القلوب. ومن هنا كانت عناية العـــرب بهـــا حتى عدوها مروءة، واحتفوا باللسان فمدحوه وتهيّبوه لأنه يرفع ويضـــع، واحتفلـــوا بالقلم لأنه أحد اللسانين وذلك لما انتشرت الكتابة فيهم فغدت معياراً للاختيار فـــلا يستوزرون ولا يستكتبون إلاّ من برع في ذلك لأن القلم لسان أيضاً، واللسان هو وافد العقل ورسول القلب، وفصاحة المتحدث ولباقته دليل على مقدار عقله ومبلغ علمه.

وهذا البحث يتناول مقومات الفصاحة وآثارها، ويعرّفها ويبين كنهها وماهيتها وخصائصها، ويقف عند أهميتها عند العرب لإبانتها عمّا في نفوسهم وتعبيرها عـــن حاجاتهم حتى غدت خصيصة لسانهم ومعجزة رسولهم. ويشرح قيمتها في التعبير عن النفس وحاجاتها الضرورية الحيوية. ويوضّح أثر اللسان وفصاحته وتأثير البيان ووقعـــه على النفوس بالقدرة على اختيار التعبير المبين باللفظ السهل الذي يبلغ بـــه المتحـــدث غايته بأقصر سبيل. كما يتناول طرق اكتساب الفصاحة وتربية الأجيال عليها حتـــى يستمر الموروث بتدارس خصائص الكلام الفصيح والمحافظة على أســـاليب الفصاحـــة وطرائق التعبير وإشرابها للناشئة حتى تكون طبعًا ثابتًا فيهم.

ويقف المبحث عند اللغة الفصحى التي هي قوام كل ما تقدّم، مؤكدًا علـــى أن اللغة الفصحى هي المستوى الذي يصلح للعربي وغيره، للكبـــير والصغـــير، للبـــادي والحاضر. والاهتمام بها ورعايتها مطلب ضروري للأجيال المتعاقبة حتى تستلهم مـــن لغتها ماضي تاريخها وأصالتها فتتزوّد لحاضرها ومستقبلها بما يكفل لها المحافظة علـــى

www.mtenback.com

هويّتها ويحقق لها البقاء الذي تكفّل به قبل ذلك خالقها الذي جعلها وعـــاءً لكتابـــة الكريم وتكفّل بحفظه الذي هو حفظ لها أيضًا. ومن هنا نالت الأهمية الـــتي جعلتهـــا مضمار تسابق العلماء وميدان اهتمامهم. و لم تكن كل تلك العناية إلاّ من حظ الكـــلام الفصيح البليغ وحده دون سواه للحاجة إليه في التعبير عمّا في النفوس ولتأثـــيره البـــالغ فيها.

موقع الدكتور مرزوق بن تنباك
www.mtenback.com

www.mtenback.com

الفصاحة لغة:

الفصاحة لغةً هي الظهور والبيان. وفصاحة اللّسان: طلاقته وإصابته المعاني جليلها ودقيقها بلفظ سليم مبين، أخذوها من قولهم: أفصح اللبن إذا انجلت رغوته، أو أخذت عنه فانكشف ما تحتها؛ قال نضلة السلميّ:

رَأَوْهُ فَازْدَرَوْهُ وهْوَ خَرْقٌ ... وَيَنْفَعُ أهلَهُ الرَّجلُ القَبِيْحُ

ولم يَخْشَوْا مَصَالَتَهُ عَلَيْهِمْ ... وَتَحْتَ الرِّغْوَةِ اللَّبنُ الفَصِيحُ

ومن ذلك أيضًا: أفصح الصبح: إذا بدا ضوؤه، ومن أمثالهم: «أفصح الصبح لذي عينين» وأفصح كل شيء: إذا وضح، والإفصاح: الإبانة[1]. وفي القرآن: ﴿وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ﴾[2]. واليوم المفصح عندهم: الذي لا غيم فيه ولا برد. يقول الخفاجي: «وسميّ الكلام الفصيح فصيحًا كما أنهم سموه بيانًا لإعرابه عمّا عبر به عنه وإظهاره له إظهارًا جليًا». وروي عن الرسول ﷺ أنه قال: «أنا أفصح العرب بيد أني من قريش»[3].

الفصاحة اصطلاحًا:

والفصاحة هي شطر البلاغة عند القدماء، وبينهما فرق؛ وهو أن الفصاحة تكون في الألفاظ أما البلاغة فتكون في الألفاظ والمعاني. والذي عليه مدار هذا البحث هو لفظ الفصاحة بمدلوله المتطور الشامل الذي يدلّ على البيان وإيضاح المراد بالكلام البليغ واللسان الطلق، من غير لحن أو لكنة وبلا عيّ أو قصور.

---

(1) ابن منظور، محمد بن مكرم: لسان العرب، دار صادر، مادة (فصح).

(2) سورة القصص: ٣٤.

(3) الخفاجي، أبو محمد عبد الله بن سنان: سر الفصاحة، دار الكتب العلمية، بيروت، (١٩٨٢م)، ط١، ص٥٩.

www.mtenback.com

والفصاحة في معناها العام هي جريان الألفاظ على سنن العربية وقواعدها الصحيحة، وأداؤها المعاني المقصودة بدقة ووضوح. فاللغة الفصيحة على هذا هي اللغة السليمة الواضحة التي يدرك السمع حسنها والعقل دقتها. والسلامة المقصودة هنا هي سلامة المفردات وصحة دلالتها واستقامة تأليفها.

وممن وقف عند الفرق بين الفصاحة والبلاغة الإمام عبد القاهر الجرجاني الذي عقد فصلاً في تحقيق القول على البلاغة والفصاحة والبيان والبراعة وسائر ما يعبّر به عن فضل بعض القائلين على بعض في طرائف التعبير عن الأغراض والمقاصد والكشف عمّا في النفوس فقال: «من المعلوم أن لا معنى لهذه العبارات وسائر ما يجري مجراها مما يفرد فيه اللفظ بالنعت والصفة وينسب فيه الفضل والمزية إليه دون المعنى غير وصف الكلام بحسن الدلالة وتمامها فيما كانت له دلالة، ثم يترجمها في صورة هي أبهى وأزين وآنق وأعجب، وأحقّ بأن تستولي على هوى النفس وتنال الحظ الأوفر من ميل القلوب، وأولى بأن تطلق لسان الحامد وتطيل رغم الحاسد، ولا جهة لاستعمال هذه الخصال غير أن تأتي المعنى من الجهة التي هي أصح لتأديته، وتختار له اللفظ الذي هو أخصّ به وأكشف عنه وأتمّ له وأحرى بأن يكسبه نبلاً ويظهر فيه مزية»[٤].

فالجرجاني لا يرى فصلاً بين تلك المصطلحات يجعل لبعضها مزية على بعض، ولكنه يحتفل بما يؤدي المعنى تأدية صحيحة بلفظ أقرب إلى المعنى مشاكل له يكشف عنه ويتمه، ومن ههنا تكون المزية. قال بعض الأدباء: «إن أمكنك أن تبلغ من بيان وصفك وبلاغة منطقك واقتدارك على فصاحتك أن تفهم العامة معاني الخاصة وتكسوها الألفاظ المبسوطة التي لا تلطف على الدهماء [العامة] ولا تجلّ عن الأكفاء

[٤] الجرجاني، عبد القاهر: دلائل الإعجاز، تحقيق: محمود محمد شاكر، القاهرة، مكتبة الخانجي، (١٩٨٤م)، ص٤٣.

www.mtenback.com

فأنت البليغ الكامل»[٥]. لذلك قالوا أبلغ الكلام ماسبق معناه لفظه. وعلماء البلاغة مجمعون على أن الكلام الفصيح ماسهل لفظه ووضح معناه وجاد سبكه و لم يخالف وجوه اللغة والإعراب، يقول الجاحظ: «وكانوا يمدحون شدة العارضة، وقوة المنة، وظهور الحجة وثبات الجنان وكثرة الرّيق والعلوّ على الخصم ويهجون بخلاف ذلك»[٦].

ولا يكون ظهور الحجة وكثرة الرّيق إلا لمتحدث فصيح أضحت الفصاحة طبعًا من طباعه، لا يستكره الكلام ولا يجتلبه اجتلابًا. وهذا كما قال الخفاجي: «أن يكون الكلام واضحًا جليا لا يحتاج إلى فكر في استخراجه»[٧]. فهذا هو الفصيح الذي يفهم إفهامًا يغني عن الإعادة.

ولما كانت الألفاظ خدم المعاني فإن أفصحها هو ما كان مألوفًا دالاً على المراد مؤديًا المعنى بأقصر سبيل. يقول ابن الأثير: «الكلام الفصيح هو الظاهر البيّن، وأعني بالظاهر البيّن أن تكون ألفاظه مفهومة لا يُحتاج في فهمها إلى استخراج من كتاب لغة، وإنما كانت بهذه الصفة لأنها تكون مألوفة الاستعمال بين أرباب النظم والنثر دائرة في كلامهم. وإنما كانت مألوفة الاستعمال دائرة في الكلام دون غيرها من الألفاظ لمكان حسنها، وذلك أن أرباب النظم والنثر غربلوا اللغة باعتبار ألفاظها وسبروا وقسموا فاختاروا الحسن من الألفاظ فاستعملوه، ونفوا القبيح منها فلم يستعملوه، فحسن الألفاظ سبب استعمالها دون غيرها، واستعمالها دون غيرها سبب ظهورها وبيانها، فالفصيح إذًا من الألفاظ هو الحسن»[٨].

---

[٥] ابن منقذ، أسامة: لباب الآداب، تحقيق: أحمد محمد شاكر، القاهرة، دار الكتب السلفية، (١٩٨٧م)، ص٣٥٢.

[٦] الجاحظ، عمرو بن بحر: البيان والتبيين، تحقيق: عبد السلام هارون، القاهرة، الخانجي، (١٩٨٥م)، ج١، ص١٧٦.

[٧] الخفاجي: سر الصناعة، ص ١٠٣.

[٨] ابن الأثير، ضياء الدين: المثل السائر، تحقيق: أحمد الحوفي وبدوي طبانه، القاهرة، دار نهضة مصر، ج١، ص٩١.

www.mtenback.com

وخلاصة كلام ابن الأثير أن المعوّل في الفصاحة على كثرة دوران الكلمة على ألسنة المتحدثين، وبسبب دورانها أصبحت مألوفة، وهي لم تدر بين الناس أصلاً إلا لأنها حسنة، ولذلك انتقاها الناس واستخدموها. ولعلّ هذا هو مقياس الفصاحة الذي جعل لغة قريش هي اللغة الفصحى كما سنشرحه لاحقًا.

وليس يعنى بالفصاحة الكلام المنطوق وحده، بل اللغة المنطوقة والمكتوبة، والفصاحة أمر يوجد في القسمين معًا، ولذلك يقولون: «القلم أحد اللّسانين، وهو المخاطب للعيون بسرائر القلوب»[٩]، فالكتابة صنو الخطابة، ويحتاج الإنسان في الكتابة إلى مايحتاج إليه في الخطابة من حفظ الشاهد والمثل وإعداد الكلام في الصدر وردّ أعجازه على صدوره حتى يستوي على الصورة التي يرضاها. فحين نعرّف الفصاحة هنا فإنا لا نذهب فيها إلى ما ذهبت إليه الأوائل؛ لأنهم لم يكونوا أهل كتابة، ولكن الفصاحة المعنية هنا هي فصاحة اللسان وفصاحة القلم الذي هو أحد اللسانين. وبالطبع فإن الفصاحة تكون في ذات الإنسان ونفسه ثم تكون أداته لإظهارها أحد شيئين: اللسان المستعمل في المشافهة، والقلم الذي هو نائب عن القلب ومعبّر عنه. وفرصة الكاتب في التجويد والافتنان أكبر من فرصة الخطيب المرتجل حتى لو كان كلامه معدًّا، لأن الكتابة في الإمكان معاودتها لتجويدها بالحذف والإضافة والتقديم والتأخير والتنقيح والتدقيق.

وما كان شأن المخاطبة عظيمًا إلا لأنها بنت وقتها ووليدة ساعتها. وإذا مضى الكلام بالمشافهة مضى بما له وما عليه، لذلك عظم خطر الخطابة عندهم وازداد تهيؤهم لها، وكان الخطيب المرتجل المحسن مقدّمًا على الكاتب المترسّل، والمعوّل عندهم في القسمين على إصابة المعاني بأسهل الألفاظ وأقلها.

---

[٩] ابن عبد ربه الأندلسي: العقد الفريد، تحقيق: عبد السلام هارون وآخرين، بيروت دار الكتاب العربي، (١٩٨٣م)، ج٤، ص ١٩١.

www.mtenback.com

وخلاصة ما تقدّم أن الفصاحة والبلاغة ترجعان إلى معنى واحد، ومع أن البلاغة كلٌّ والفصاحة جزء إلا أن الكلام لايكون بليغًا إلا إذا كانت ألفاظه فصيحة. كما أن الفصاحة تكون باللسان في المشافهة والمخاطبة، وتكون بالقلم في المكاتبة، ولكنها في الحالين ينبغي أن يتوخّى صاحبها خلو كلامه من التنافر والتعقيد وضعف التأليف وألاّ يخرج به عن سنن العربية وقواعد اللّغة.

الفصاحة قيمة اجتماعية:

لم تكن الفصاحة أمرًا حادثًا في العرب بل هي تلاد قديم وميراث عظيم، فقد كانت عادتهم أن يتحدى بعضهم بعضًا في المساجلة والمقارضة بالقصيد والخطب، ثقة منهم بقوة الطبع، ولأن ذلك مذهب من مفاخرهم يستعلون به ويذيع لهم حسن الذكر وعلوّ الكلمة، وهم مجبولون عليه فطرةً ولهم فيه المواقف والمقامات واللقاءات في أسواقهم ومجامعهم. فكانت الفصاحة هي أكبر أمرهم والكلام سيد علمهم، وما كان شيء عندهم آنق من البيان منظرًا ولا أبدع مظهرًا ولا أوقع أثرًا في النفوس ولا أروج سوقًا منه، كان ذلك قبل أن ينزل الإسلام بساحتهم ويجيئهم بالفصاحة التي حارت فيها عقولهم وانعقدت لها ألسنتهم. وقد ذكر الله تعالى لنبيه ﷺ حال العرب في بلاغة المنطق ورجاحة الأحلام وصحة العقول، ومافيهم من الدهاء والنكراء والمكر، ومن بلاغة الألسنة واللدد عند الخصومة فقال تعالى: ﴿فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ﴾ [10]، وقال: ﴿وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا﴾[11]، ثم ذكر خلابة ألسنتهم واستمالتهم الأسماع بحسن منطقهم فقال: ﴿وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ﴾[12]، ثم قال: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ

---

[10] سورة الأحزاب: ١٩.

[11] سورة مريم: ٩٧.

[12] سورة المنافقون: ٤.

www.mtenback.com

﴿يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾[13]. وقال الشاعر في قوم يحسنون في القول ويسيئون في العمل:

كُسَالَى إذا لاَقَيْتَهُم غيرَ مَنْطِقٍ ... يُلَهَّى بِه المَحْرُوبُ وهْوَ عَنَاءُ

وقيل لبعضهم: ماتقول في خزاعة؟ قال: «جوع وأحاديث»[14].

فهؤلاء القوم كانت صناعتهم الكلام، والمتفرّد بالصنعة حقيق بأن يتقنها ويحسن فيها، لذلك حينما جاء الإسلام وجد صناعتهم قد اشتدت واستوت على سوقها، يقول الرافعي: «بلغ العرب في عقد القرآن مبلغًا من الفصاحة وتنقيحها واطرادها على سنن الاجتماع، فكانوا قد أطالوا الشعر وافتنوا فيه وتوافى عليه من شعرائهم أفراد معدودون كان كل واحد منهم كأنه عصر في تاريخه بما زاد من محاسنه وابتدع من أغراضه ومعانيه، ومانفض عليه من الصبغ والرونق ثم كان لهم من تهذيب اللغة واجتماعهم على نمط من القرشية يرونه مثلاً لكمال الفطرة الذي يمكن أن يكون... فقامت فيهم بذلك دولة الكلام، ولكنها بقيت بلا ملك، حتى جاءهم القرآن»[15].

وقوم هذه حالهم لم يكن بدعًا أن تكون معجزة المرسل إليهم من جنس مابرعوا فيه. ونزول القرآن الكريم باللسان العربي المبين هو تحدٌّ للعرب في أخصّ خصائصهم وهي الفصاحة. ولو لم تكن الفصاحة قيمة راسخة وشيئًا ثمينًا عند العرب لم تكن للتحدي به مزية، ولو تحداهم بأمر بعيد من نفوسهم ليس لهم به احتفال ولا عناية لما التفتوا إليه.

ومما يدلك على أن الفصاحة عندهم قيمة موروثة وأنها حلية لمن رزقها ما تداوله الرواة والعلماء، من عبارات الحفاوة بها والثناء عليها حتى قال ابن سيرين: «ما رأيت

(13) سورة البقرة: ٢٠٤.

(14) الجاحظ: البيان والتبيين، ٨/١.

(15) الرافعي، مصطفى صادق: إعجاز القرآن، بيروت، دار الكتاب العربي، ص ١٥٧.

www.mtenback.com

على امرأة أجمل من شحم ولا رأيت على رجل أجمل من فصاحة»[١٦]. وكان الأصمعي يروي عن العرب قولهم: جمال الرجل الفصاحة وجمال المرأة الشحم، وليس للمرأة ستر إلا ستران زوجها وقبرها. وقال شاعرهم مؤكداً على هذه الصفة حاضّاً عليها:

كَفَى بالمرءِ عَيْبًا أَنْ تَرَاهُ ... لَهُ وَجْهٌ وَلَيْسَ لَهُ لِسَانُ

وَمَا حُسْنُ الرِّجَالِ لَهُمْ بِزَيْنٍ ... إذا لَمْ يُسْعِدِ الحُسْنَ البَيَانُ

فليس الجمال عندهم جمال الوجه والثياب، لأن المخبر عندهم مقدم على المظهر ولهم في ذلك أشعار كثيرة تدور حول هذا المعنى كقول الآخر:

وَكَمْ مِنْ فتىً سَاقطٍ عَقْلُهُ ... وقدَ يَعْجَبُ النَّاسُ من شَخْصِهِ

وآخَرَ تَحْسَبُهُ أنْوَكًا ... وَيَأْتيكَ بالأمْرِ مِنْ فَصِّهِ

وهذا أشبه بقول العباس بن مرداس[١٧]:

تَرَى الرَّجُلَ النَّحِيفَ فَتَزْدَرِيهِ ... وفي أثوابِهِ أَسَدٌ هَصُورُ

وَيُعْجِبُكَ الطَّرِيرُ فَتَبْتَلِيهِ ... وَيُخْلِفُ ظَنَّكَ الرَّجُلُ الطَّرِيرُ

والشواهد على ذلك تطول لكنها دالّة على صدق المعيار الذي اتخذته العرب في المفاضلة بين الرجال، وهو معيار ثابت دقيق، نتائجه مقنعة. وسترى في ثنايا هذا البحث رجالاً اقتحمتهم العيون ونفرت عنهم النفوس ولكنهم حين كشف عمّا ينطوون عليه من لبّ عقول ولسان قئول رفعوا إلى درجتهم وارتاحت النفوس إلى رؤيتهم. قال الأصمعي : «بينما أنا بحمى ضَرِيَّة إذ وقف عليّ غلام من بني أسد في أطمار [ثياب بالية]، ماظننته يجمع بين كلمتين، فقلت له ما اسمك؟ قال: حُرَيْقِيص.

---

[١٦] ابن عبد ربه: العقد الفريد، ج٢، ص٤٧٥.

[١٧] المصدر السابق، ج٢، ص٤٧٥، الجاحظ: البيان والتبيين، ج١، ص٣.

www.mtenback.com

فقلت أما كفى أهلك أن يسمّوك حرقوصًا [اسم دويبة كالبرغوث] حتى حقّروا اسمّك؟! فقال: إن السُّقْط ليُحرِق الحَرَجَة. فعجبت من جوابه فقلت: أتنشد شيئًا من أشعار قومك؟ قال: نعم أنشدك لمرّ ارنا، فقال:

سَكَنُوا شُبَيْثًا والأَحَصّ وأَصْبَحُوا ... نَزَلَتْ مَنَازِلَهُمْ بَنُو شَيْبَانِ

وإذا يُقَالُ أُتِيتُمُ لَمْ يَبْرَحُوا ... حَتّى تُقِيمَ الخيلُ سوقَ طِعَانِ

وإذا فُلَانٌ ماتَ عَنْ أُكْرُومَةٍ ... رَقَعُوا مَعَاوِزَ فَقْدِهِ بِفُلَانِ

قال الأصمعي: فكادت الأرض تسوخ بي لحسن إنشاده وجودة الشّعر[18].

وكانوا لإجلالهم لأمر الفصاحة يستعيذون من الحصر والعيّ وهو افتقاد المرء للكلام الحسن المبين عمّا في نفسه؛ يقول النمر بن تولب:

أَعِذْنِي رَبِّ مِن حَصَرٍ وَعَيٍّ ... ومِن نفسِي أُعَالِجُهَا عِلاجَا

روى هذا البيت ابن قتيبة وأردفه بقول يونس بن حبيب: ليس لعييّ مروءة، ولا لمنقوص البيان بهاء، ولو بلغ يافوخه عنان السماء. وكانوا يقولون: مروءتان ظاهرتان الفصاحة والرّياش[19].

فجعلوا الفصاحة جمالاً وبهاءً وحسنًا ثم جعلوها مروءة، ولولا أنها قيمة ومزية مابلغوا بها هذا المدى. قال عبد الملك بن مروان: ما الناس إلى شيء من الأدب أحوج منهم إلى إقامة ألسنتهم التي بها يتعادون الكلام ويتعاطون البيان ويتهادون الحكمة، ويستخرجون غوامض العلم من مخابئها ويجمعون ماتفرّق منها، فإن الكلام قاض يحكم بين الخصوم وضياء يجلو الظلم. حاجة الناس إلى موادّه حاجتهم إلى موادّ الأغذية[20].

---

[18] القالي، أبو علي إسماعيل بن القاسم: الأمالي، بيروت، دار الكتب العلمية، (١٩٧٨م)، ج١، ص ٦٦.

[19] ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله بن مسلم : عيون الأخبار، القاهرة، دار الكتب (١٩٢٥م)، ج٢، ص١٧٥.

[20] ابن منقذ: لباب الآداب ص ٢٢٩.

www.mtenback.com

فجعل طلب الفصاحة والحاجة إليها كالحاجة إلى مواد الأغذية التي بها حياة الأجساد. بل ذهب ابن عباس إلى أبعد من هذا حين جعل فصاحة اللسان وبلاغة البيان مكان البصر ونور العين فكان يقول:

إِنْ يَأْخُذِ اللهُ مِنْ عَيْنَيَّ نُوْرَهُمَا ... فَفِي لِسَانِي وَقَلْبِي مِنْهُمَا نُوْرُ

وإذا وهب الله الفصاحة لعبد من عباده كانت محلّ كثير من النعم؛ كنعمة البصر، وفي تاريخنا نماذج لا تحصى، فقد كان بشار بن برد شاعرًا مجلّيا من شعراء العربية وكان كفيفًا ولكنه كان أشعر من كثيرين من المبصرين في زمانه وأفصح وهذا أبو العلاء المعري شاعر زمانه وفيلسوف العرب حين قعد به بصره قامت به فصاحته ورفعته فوق المبصرين، وكذلك كان طه حسين وغيره. وهذا كله يريك أن قيمة الإنسان ببيانه ولسانه، ويريك أيضًا اعتداد الناس بنعمة اللسان والبيان وجعلها مقياسًا للتقدمة والتجلة.

والدليل على أن الفصاحة قيمة نفيسة وأنها مما يجمّل الرجال أنهم كانوا يتفاخرون بذلك حتى إن المولى عزّ وجلّ حين ذم أصحاب المنطق الرديء والعيّ والفهاهة شبههم بالنساء والأطفال فقال: ﴿أَوَمَنْ يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾[٢١]. فجعله ذمًا لأن العرب لاتعتدّ بأقوال النساء والأطفال ولا تحفل بذلك إلا نادرًا. لذلك جعل الله تعالى البيان نعمة تستحق الشكر وتقويم اللسان منّة تستوجب الاعتراف بجميل صنع الله فقال: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ. خَلَقَ الْإِنْسَانَ. عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾[٢٢]، وقال أيضًا: ﴿هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ﴾[٢٣]، ومدح القرآن بالبيان والإفصاح وبحسن التفصيل

---

[٢١] سورة الزخرف: ١٨.

[٢٢] سورة الرحمن: ١-٤.

[٢٣] سورة آل عمران: ١٣٨.

www.mtenback.com

والإيضاح وبجودة الإفهام وحكمة الإبلاغ، وسماه فرقانًا كما سماه قرآنًا. وكان الرسول ﷺ يقول: أنا أفصح العرب بيد أني من قريش[٢٤]. وكل ذلك مما يزيد من قيمة الفصاحة في نفوس القوم.

ومّما يدل على أن الفصاحة قيمة اجتماعية أنهم ضربوا بها المثل فقالوا: أخطب من سحبان وائل، وأفصح من قس، وأبلغ من قس، وهو قس بن ساعدة الإيادي، وتمثلوا بضدّها فقالوا: أعيا من باقل[٢٥].

ومن هنا كان حرص العرب على الفصاحة بوصفها قيمة اجتماعية موروثة وفضيلة تزين المتحلي بها ومروءة ظاهرة وحاجة من حاجات الناس وأنها تقوم مقام بعض الحواس إذا فقدت وأنها عوض لصاحبها عن كثير مما يفتقد. ثم جاء الدين ومدحها وجعلها عماد العلم ووسيلة الرسل وأداتهم إلى إبلاغ رسالات ربّهم بل هي دعامة من دعائم ذلك؛ فهذا نبيّ الله موسى عليه السلام لما رأى تقصيره في الفصاحة وقوة البيان ورأى أن أخاه هارون متمكن من ذلك سأل الله تعالى أن يشُدّ أزره بأخيه لعلمه بفصاحته وذلك بعد أن سأله إطلاق عقدة لسانه وشرح صدره وتهدئة ثائرة القوم حتى يستوعبوا ماجاء به، وهذا أكبر دليل على قيمة الفصاحة والحاجة إليها في الدعوة وإبلاغها للناس.

وكانت العرب على الرغم من فصاحتها ونقاء لسانها ربّما نشّأت أبناءها في البوادي واسترضعتهم في القبائل ذات النسب العريق في الفصاحة حرصًا على التجويد وحبًا في التمكن. وقد كان الرسول ﷺ يذكر لأصحابه استرضاعه في بني سعد وذلك حين يتعجبون من فصاحته وفصل خطابه. بل إن العلماء المشاهير ربما أطالوا النجعة إلى مضارب الأعراب ومظان الفصاحة في البوادي يلتمسون صقل الملكة والموهبة

---

[٢٤] الخفاجي: سر الفصاحة، ص٥٩.

[٢٥] الميداني، مجمع الأمثال ج١، ص٢٤٩، ٢٦٢، ج٢، ص٤٣، ٩٠..

www.mtenback.com

واكتساب المزيد. وما تعلمهم النحو وعلوم اللغة إلا رافد من روافد الفصاحة لتكتمل آلتها ويستقيم عودها. وإهمال هذه التنشئة سيئ العائدة خصوصًا بعد قيام الحواضر واختلاط العرب بالأعاجم وفشوّ اللحن، فكان هذا العامل حافزًا قويًا ودافعًا لأهل الغيرة على صفاء اللسان لتعهّد أبنائهم حتى قال عبد الملك بن مروان: أضرّ بنا في الوليد حبنا له فلم نلزمه البادية. وكان الوليد لحّانًا، وكان عبد الملك فصيحًا معربًا وكان مع ذلك يخشى اللحن ويتحاشاه وقد علل بكور الشيب إليه بسبب تحفظه من اللحن وتوقيه.

وترسخ مفهوم الفصاحة وسمت قيمتها عند العرب خصوصًا بعد أن مدحها الله في كتابه العزيز وجعلها عدة الرسل والأنبياء بل جعلها المعجزة الخالدة لرسالته الخاتمة. وكان الرسول ﷺ سيّد الفصحاء الأبيناء، وكان من صفة كلامه ﷺ ما روته عائشة رضي الله عنها فقالت: «ما كان رسول الله يسرد كسردكم هذا ولكنه كان يتكلم بكلام بيّن فصْلٍ يحفظه من جلس إليه»[٢٦].

وكان ﷺ يدعو إلى الإبانة ويجعل طلبها تعبُّدًا في مثل قوله: «أعربوا في كلامكم تعربوا في كتاب الله». وقال لما سمع أحدهم يلحن: «أرشدوا أخاكم فقد ضلّ». فقد جعل اللحن ضلالاً لأن من لا يتعهد لسانه وهو وسيلة علمه أدعى إلى أن يضل عن العلم الصحيح.

ولما رأى الصحابة فصاحة الرسول ﷺ وحضّه على التفصُّح كانوا من أشد المتمسكين بذلك والداعين إليه. وقد كانت خطبة أبي بكر بعد السقيفة على وجازتها دستورًا متكاملاً وأد الفتنة في حينها وبعث الرضا في القلوب وذلك حين قال: «أيها الناس إني قد ولّيت عليكم ولست بخيركم،فإن رأيتموني على حق فأعينوني وإن رأيتموني على باطل فسددوني. أطيعوني ما أطعت الله فيكم، فإن عصيته فلا طاعة لي

[٢٦] أخرجه الترمذي: المناقب برقم ٣٦٤٣.

www.mtenback.com

عليكم. ألا إن أقواكم عندي الضعيف حتى آخذ الحق له وأضعفكم عندي القوي حتى آخذ الحق منه. أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم لي ولكم»[٢٧]. فقد أبان رضي الله عنه بعبارة بليغة مؤثرة واجبات الحاكم والمحكوم بعد اعترافه بأنه واحد من المسلمين ليست له عليهم مزية وتلك كلمة بالغة في أمة كانت الرياسة فيها محل تنازع دونه إزهاق النفوس.

وكان عمر رضي الله عنه من أشد الناس غيرة على اللسان، يسوؤه اللحن في الكلام مثلما يسوؤه الخطأ في العمل. وهو القائل: «تعلموا العربية تحرزوا المروءة» وقد كتب إلى أهل الأمصار يحضهم على تعليم أولادهم، وكان مما قال: ورووهم ما سار من المثل وحسن من الشعر. ولما أنشده رجل قول طرفة:

وَلَوْلاَ ثلاثٌ هُنَّ من عيشَةِ الفَتَى وَجَدِّكَ لم أَحْفَل مَتَى قَامَ عُوَّدِي

قال عمر: «لولا أن أسير في سبيل الله وأضع جبهتي لله وأجالس أقوامًا ينتقون أطايب الحديث كما ينتقون أطايب التّمر لم أُبالِ أن أكون قدْ مِتّ»[٢٨].

استبدل رضي الله عنه بالثلاث التي ذكرها طرفة - الخمر والنساء ونجدة الملهوف - ثلاثًا أفضل منها، أحدها الحديث المنتقى. لهذا كان ابن عباس يقول: مارأيت أروى من عمر ولا أعلم من علي[٢٩]. ونظر عمر إلى الأحنف بن قيس وعنده الوفد والأحنف ملتفّ في بتّ له، فترك جميع القوم واستنطقه فلما تبعق منه ما تبعق - فاض منه ما فاض - وتكلم بذلك الكلام المصيب، وذهب ذلك المذهب لم يزل عنده في علياء ثم صار إلى أن عقد له الرئاسة ثابتًا له ذلك إلى أن فارق الدنيا»[٣٠]. وما قدمه

---

[٢٧] ابن عبد ربه: العقد الفريد، ٥٩/٤.

[٢٨] الجاحظ: البيان والتبيين، ٤٥/١.

[٢٩] المبرد، أبو العباس محمد بن يزيد: الكامل، تحقيق: محمد أبو الفضل وآخر، دار نهضة مصر (١٩٥٦م)، ج٢، ص١٩.

[٣٠] الجاحظ: البيان والتبيين، ٢٣٧/١.

www.mtenback.com

عمر إلا لفصاحته وعقله. وكذلك كانوا يفعلون إذا أرادوا أن يولوا أو يستوزروا أو يبعثوا رسولاً أو سفيرًا فإن الفصاحة هي المعيار الذي يرجح الكفّة. وفي هذا أكبر دليل على سمو الفصاحة في نفوسهم حتى جعلوها معيارهم النافذ والمؤهل الذي لا يدانيه مؤهل في التقدمة وتسنّم المناصب وبلوغ الدرجات.

ولم يكن ذلك مقصورًا على علية القوم بل كان معيارًا عامًا يطبّق حيثما احتيج للمفاضلة. أورد الحصري أن عمر بن عبد العزيز لما استخلف قدمت عليه وفود أهل البلدان فتقدم إليه وفد أهل الحجاز فاشرأبّ منهم غلام للكلام فقال عمر: يا غلام ليتكلم من هو أسنّ منك. فقال الغلام: يا أمير المؤمنين إنما المرء بأصغريه: قلبه ولسانه، فإذا منح الله عبده لسانًا لافظًا وقلبًا حافظًا فقد أجاد له الاختيار، ولو أن الأمور بالسنّ لكان ههنا من هو أحق منك بمجلسك. فقال عمر: صدقت تكلم، فهذا السحر الحلال. فقال: يا أمير المؤمنين نحن وفد التهنئة لاوفد المرزئة، ولم تقدمنا إليك رغبة ولا رهبة، لأنا قد أمنّا في أيامك ماخفنا، وأدركنا ماطلبنا، فسأل عمر عن سن الغلام فقيل: عشر سنين[٣١].

ومن هنا كان عقل العرب وعدهم، إذ لم يجعلوا الرياسة والتقديم بالسن أو الجاه أو النسب وما إليه بل عمدوا إلى أمور جوهرية، فكثيرًا ما حذروا من المظاهر التي لا تبين عن الجواهر وكانوا يقولون: عقل المرء مخبوء تحت لسانه. فربما رأيت الرجل ذا المهابة وحسن البزة وجمال الهيئة والرياش فإذا تحدث سقط من عينك، وربما رأيت صاحب المنظر المزري والمرأى المنفّر فإذا تكلم ملأ عينك جمالاً ونفسك جلالاً. وربما صدرت هذه النظرة السطحية من عقلاء الناس وحلمائهم وعلمائهم دليلاً على العجلة المتأصلة في الإنسان لأنها مقرونة بخلقه ﴿خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾[٣٢]. قال الجاحظ:

---

[٣١] الحصري، أبو إسحاق إبراهيم بن علي: زهر الآداب، تحقيق: محمد علي البجاوي، مطبعة عيسى البابي الحلبي، ص٤٠.

[٣٢] سورة الأنبياء: ٣٧.

www.mtenback.com

نظر معاوية إلى النحاز بن أوس العذريّ الخطيب الناسب في عباءة في ناحية مجلسه، فأنكره وأنكر مكانه زراية منه عليه، فقال من هذا؟ فقال النحاز: يا أمير المؤمنين، إن العباءة لاتكلمك وإنما يكلمك من فيها. فقال: صدقت. وكذلك فعل النعمان بن المنذر بضمرة بن ضمرة فإنه لما دخل عليه زرى عليه للذي رأى من دمامته وقِصَرِه وقلته، فقال النعمان: تسمع بالمعيدي خير من أن تراه. فقال: أبيت اللعن، إن الرجال لاتكال بالقُفزان ولا توزن بالميزان، وليست بمُسوك يُستَقَى بها. وإنما المرء بأصغريه بقلبه ولسانه؛ إن صال صال بجنان وإن قال قال ببيان[٣٣] ومثل ذلك كثير، وكله لايعدو أن يكون دليلاً على قيمة البيان والفصاحة واللسن وأثرها في رفع المرء أو وضعه.

وخير شاهد من الكلام المنثور على قيمة الفصاحة وخطرها في نفوس القوم ماذكره الجاحظ من خبر إياس بن معاوية، وقد دخل الشام وهو غلام، فقدّم خصمًا له وكان الخصم شيخًا كبيرًا إلى بعض قضاة عبد الملك بن مروان فقال له القاضي: أتقدم شيخًا كبيرًا؟ قال: الحق أكبر منه. قال: اسكت. قال فمن ينطق بحجتي؟ قال: لا أظنك تقول حقًا حتى تقوم. قال: لا إله إلا الله، أحقًا هذا أم باطلاً؟ فقام القاضي فدخل على عبد الملك من ساعته، فخبّره بالخبر، فقال عبد الملك: اقض حاجته الساعة وأخرجه من الشام لايفسد عليّ الناس. فإذا كان إياس وهو غلام يُخاف على جماعة أهل الشام فما ظنك به وقد كبرت سنّه وعضّ على ناجذه[٣٤]. وهذا الخبر في غنى عن التعليق عليه في دلالته على قيمة البيان وأثر اللسان والفصاحة.

أما في الشعر وهو أحد ينابيع الفصاحة فإنك واجد ما لا يقع تحت حصر من الشواهد على أن الفصاحة قيمة أصيلة من قيم العرب ترفع و تخفض وتميت الذّكر وتحييه وتنبه الخامل وتضعف النّابه. وما أكثر ماسمعنا بمن عفي عنه أو أطلق من حبس

---

[٣٣] الجاحظ: البيان والتبيين، ١/١٧١، ١/١٣٧.

[٣٤] المصدر السابق، ١/١٠١.

www.mtenback.com

بشعر قاله، أو قطع بشعر رواه أو منع من الدخول على ملك بسبب شعره. وكان المتنبي قد قتله بيت شعر له، وقبل ذلك حرمه كافور الولاية بسبب تعاظمه في شعره وخوفه من أدبه وبيانه. وكانت الأبيات عندهم ربما رفعت القبيلة أو وضعتها وربما محت الأبيات القليلة عارًا أو سببت دمارًا وكل ذلك دليل على مكانة الفصاحة وقيمة البيان عندهم.

وقد ساق ابن رشيق في العمدة جملة أخبار دالة على مانحن فيه سماه «باب من قضى له الشعر ومن قضى عليه»[٣٥]. وذكر أبيات النابغة الذبياني التي نال بها الجنة بدعوة الرسول ﷺ، وقضى لحسان بالجنة مرتين في ساعة واحدة بسبب شعره وذكر رجالاً وخلقًا أفناهم الشعر وآخرين أحياهم. قال: «واستعطف أبو تمام مالك بن طوق لقومه بني تغلب وكانوا أفسدوا في عمله الطرق، فخافوه واستشفعوا بأبي تمام فقال في قصيدة مشهورة يخاطب بها مالكًا:

ورأيت قَوْمَكَ والإسَاءَةُ مِنْهُمُ ... جَرْحَى بِظُفْرِ للزَّمَانِ وَنَابِ
هُمْ صَيَّروا تلك البُرُوقَ صَوَاعِقًا ... فِيهِمْ وذاك العَفْوَ سَوْطَ عَذَابِ

إلى أن يقول:

فَمَضَتْ كُهُولُهُمُ، ودَبَّرَ أَمْرَهُمْ ... أَحْدَاثُهم تَدبِيرَ غَيرِ صَوَابِ
لا رِقَّةُ الحَضَرِ اللَّطِيفِ غَذَتْهُمُ ... وتَبَاعَدُوا عَن فِطْنَةِ الأَعْرَابِ
فَإذا كشَفْتَهُمُ وَجَدْتَ لَدَيْهُمُ ... كَرَمَ النُّفُوسِ وَقِلَّةَ الآدَابِ
لَكَ في رَسُولِ اللهِ أَعْظَمُ أُسْوةٍ ... وَأَجَلُّهَا في سُنَّةٍ وكتَابِ

[٣٥] ابن رشيق القيرواني، أبو علي الحسن: العُمْدَة في محاسن الشعر وآدابه، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، بيروت، دار الجيل، (١٩٨١م)، ١/٥٣-٦٤.

www.mtenback.com

أَعْطَى المؤَلَّفَةَ القُلُوبِ رِضَاهُمُ   كَرَمًا وَرَدَّ أَخَائِذَ الأَحْزَابِ

فذكر أصحاب الأخبار أن هذه القصيدة وقعت من مالك أجل موقع فأجزل ثوابه عليها وقبل شفاعته وردّ القوم إلى رتبهم ومنزلتهم من بعد اليأس المستحكم والعداوة الشديدة[36].

فهذا وما مضى وغيره يبين قيمة الكلام الفصيح في نفوس العرب وأنه يفعل فيها فعل السحر، فيفك عُقدها، ويزيل ضغينتها، ويطيب نفوسها، ويسوقها إلى الصفح سوقًا جميلاً، ويردّها إلى الحقّ ردًا لطيفًا، ويدفعها إلى السخاء والبذل والعفو والتسامح، وبه تقضى الحوائج وتنال الرُّتب. وذلك من أمر الفصاحة قديم مشهور. ثم جاء الإسلام ورسّخ هذه القيمة ووجّهها لمصلحة الإنسانية فصارت الكلمة الطيبة صدقة، والقول اللّين رحمة، والبيان نعمة، وطلبه وتعلّمه لجلب الخير ودفع الضر عبادة وقربة.

أهمية البيان والفصاحة:

لما كان من معاني الفصاحة ووظائفها الإبانة عمّا في النفس صارت للبيان أهمية كبرى عند العرب، بل أصبح رأس اهتماماتهم، وبرعوا فيه براعة جعلت معجزة الرسول الذي بعث فيهم من جنس مابرعوا فيه، إمعانًا في التحدّي؛ فذكر الله تعالى لنبيه حال العرب في بلاغة المنطق ورجاحة العقول وفصاحة الألسنة وقوة العارضة تمهيدًا للكلام المعجز الذي حارت أفكارهم في اطراد فصاحته حتى وصفوه بالسحر، فتحداهم أن يأتوا بسورة من مثله، ثم بعشر سور، ثم أظهر لهم عجزهم وأبان تقصيرهم وألجمهم بقوله تعالى: ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾[37].

---

[36] ابن رشيق، العمدة، ج١، ص٥٩.

[37] سورة الإسراء: ٨٨.

www.mtenback.com

وكان المولى سبحانه وتعالى قبل إنزال هذا الحديث المعجزة قد هيأ المنزل عليه والمرسل به؛ فاختاره ﷺ من صفوة العرب وخيارهم، وجعله سيد فصحائهم وآتاه جوامع الكلم، فهو القائل عن نفسه «أنا خيار من خيار» وقال: «أنا أفصح العرب بيد أني من قريش واسترضعت في سعد بن بكر»[٣٨]. وحصر كلام النبوة ممتنع معجز لأن كله بليغ فصيح، وحسبنا هنا ماقاله الجاحظ في وصف فصاحة لسانه وبلاغة منطقه مما لم يسبقه إليه عربي ولا شاركه فيه أعجمي و لم يُدّع لأحد ولا ادعاه أحد مما صار مستعملاً ومثلاً سائرًا، «وهو الكلام الذي قل عدد حروفه وكثر عدد معانيه، وجلّ عن الصنعة ونزه عن التكلف، واستعمل المبسوط في موضع البسط، والمقصور في موضع القصر، وهجر الغريب الوحشي ورغب عن الهجين السُّوقي. فلم ينطق إلا عن ميراث حكمة و لم يتكلم إلا بكلام قد حفّ بالعصمة وشيّد بالتأييد ويسّر بالتوفيق وهو الكلام الذي ألقى الله عليه المحبة وغشاه بالقبول وجمع له بين المهابة و الحلاوة وبين حسن الإفهام... لم تسقط له كلمة ولا زلت به قدم ولا بارت له حجة و لم يقم له خصم ولا أفحمه خطيب، بل يبذ الخطب الطوال بالكلم القصار ولا يلتمس إسكات الخصم إلا بما يعرفه الخصم. ولا يحتج إلا بالصدق ولا يطلب الفلج إلا بالحق، ولا يستعين بالخلابة ولا يستعمل المواربة ولا يهمز ولا يلمز ولا يبطئ ولا يعجل ولا يسهب ولا يحصر. ثم لم يسمع الناس بكلام قط أعم نفعًا ولاأقصر لفظًا ولا أعدل وزنًا ولا أجمل مذهبًا ولا أكرم مطلبًا ولا أحسن موقعًا ولا أسهل مخرجًا ولا أفصح معنى ولا أبين فحوى من كلامه ﷺ»[٣٩].

أوردنا عبارة الجاحظ هذه لأنها نموذج للفصاحة يصف فيها مثل الفصاحة الأعلى. وقد مدح الله تعالى البيان وقرنه بخلق الإنسان وعدّه نعمة من النعم وذلك قوله

---

[٣٨] الحصري: زهر الآداب، ١/ ٢٣.

[٣٩] الجاحظ: البيان والتبيين، ٢/١٧-١٨.

www.mtenback.com

تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ. عَلَّمَ الْقُرْآنَ. خَلَقَ الإِنْسَانَ. عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾[٤٠]. وكان الرسول ﷺ أفصح الفصحاء وأبين الأبيناء، وكانت تعجبه الفصاحة وبلاغة المنطق، فحين وفد عليه وفد بني تميم سأل عمرًا ابن الأهتم عن الزبرقان بن بدر فقال عمرو: مطاع في أدنيه، شديد العارضة، مانع لما وراء ظهره. فقال الزبرقان: يارسول الله إنه ليعلم مني أكثر من هذا ولكنه حسدني، فقال عمرو: أما والله ما كذبت في الأولى ولقد صدقت في الأخرى، ولكني رضيت فقلت أحسن ماعلمت وسخطت فقلت أقبح ماوجدت. فقال عليه الصلاة والسلام: «إن من البيان لسحرا»[٤١]. أعجبه ﷺ حسن بيان ابن الأهتم وبراعته وحسن تأتيه لتسويغ ورود المدح والذم في سياق واحد حتى بدا الكلام معقولاً مقبولاً.

وكان اهتمام العرب بهذا البيان الذي توارثوه نابعًا من رغبتهم الأكيدة في إظهار المعنى المراد وإبلاغ الحجة. فما هذا البيان الذي قصدوه واحتفوا به وأعلوا من شأنه؟

البيان عندهم إصابة المعنى بأقصر سبيل باجتماع الفصاحة والبلاغة وذكاء القلب وتوقد الذهن. وهو الدلالة الظاهرة على المعنى الخفيّ. يقول الأندلسي: «كل شيء كشف لك قناع المعنى الخفي حتى يتأدى إلى الفهم ويتقبله العقل فذلك البيان الذي ذكره الله عز وجلّ في كتابه العزيز ومنّ به على عباده [٤٢]. وقيل لجعفر ابن يحيى: ما البيان؟ قال أن يكون الاسم يحيط بمعناك ويجلي عن مغزاك وتخرجه عن الشركة ولا تستعين عليه بالفكرة، والذي لا بد له منه أن يكون سليمًا من التكلف

---

[٤٠] سورة الرحمن: ١-٤.

[٤١] الميداني: مجمع الأمثال، ١/٧.

[٤٢] ابن عبد ربه: العقد الفريد، ٢/ ١٢٣.

www.mtenback.com

بعيدًا عن الصنعة بريئًا من التعقيد غنيًا عن التأويل»[٤٣]. وهذا هو تأويل قول الأصمعي: البليغ من طبق المفصل وأغناك عن المفسّر. وقال الرماني في تعريفه: هو إحضار المعنى للنفس بسرعة إدراك، والكشف عن المعنى حتى تدركه النفس من غير عُقلة[٤٤]. وقالوا: البيان عماد العلم وترجمانه والعيّ من نتاج الجهل. لذلك كان الناس مغرمين بالكلام الفصيح البيّن، تهتز له نفوسهم وترتاح له قلوبهم. قالوا: كلم رجل عبد الملك بن مروان بكلام ذهب فيه كل مذهب، فأعجب عبد الملك ما سمع من كلامه، فقال له: ابن من أنت؟ قال: أنا ابن نفسي يا أمير المؤمنين التي بها توصلت إليك. قال: صدقت[٤٥].

وأهمية البيان لا تخفى، وحاجة الناس إليه لا تنقضي. فهم يحتاجون إليه في التعبير عن ضروريات الحياة وحاجات النفوس، كالإقناع بالمبادئ ووجهات النظر أو محاجة الخصوم ومقارعة الأنداد. والبيان يفضي إلى وضوح الحجة وذلك يجلب المنفعة ويدفع المضرة. روى ابن عبد ربه أن الشعبي دخل على الحجاج بن يوسف - وبهما وبابن القرّية يضرب المثل في الفصاحة - فقال له الحجاج: كم عطاك؟ قال: ألفين. قال ويحك كم عطاؤك؟ قال: ألفان. قال: فلم لحنت فيما لا يلحن فيه مثلك. قال: لحن الأمير فلحنت، وأعرب الأمير فأعربت، ولم أكن ليلحن الأمير فأعرب أنا عليه فأكون كالمقرّع له بلحنه والمستطيل عليه بفضل القول قبله، فأعجبه ذلك منه ووهبه مالا[٤٦].

فقد عادت الفصاحة هنا على الشعبي بخير كثير، ونفعه بيانه، فأمن جانب الحجاج وسطوته، وأبان عن أدبه في مخاطبة الملوك وعلية القوم وقرعه بحجة ظاهرها

---

[٤٣] ابن عبد ربه: العقد الفريد، ٢/ ٢٨٥.

[٤٤] القيرواني: العمدة، ١، ٢٤٥.

[٤٥] ابن عبد ربه: العقد الفريد، ٢/ ٢٩١.

[٤٦] المرجع السابق، ٢/ ١٢٥.

www.mtenback.com

اعتذار لطيف وباطنها تقريع عنيف، ثم أرضى الأمير من بعد ذلك ونال عطاءه، وهذه عائدة محمودة من عوائد البيان.

ودخل رجل على المنصور فقال له: تكلم بحاجتك . فقال: يبقيك الله يا أمير المؤمنين. فقال تكلم بحاجتك فإنك لا تقدر على هذا المقام في كل حين. قال: والله يا أمير المؤمنين ما أستقصر أجلك ولا أخاف بخلك ولا أغتنم مالك، وإن عطاءك لشرف وإن سؤالك لزين وما لامرئ بذل وجهه إليك نقص ولا شين. قال فأحسن جائزته وأكرمه[٤٧]. فالرجل لم يسأل شيئًا ولكن بيانه أعطاه أكثر من السؤال.

وقد تعمد العرب إلى التعبير المؤثر جلبا للمنفعة أو دفعًا للضرر، لذلك كانوا يقولون: رب كلمة أفادت نعمة، ورب كلمة سلبت نعمة، ورب قول أنفذ من صول. وقالوا: أنفذ من الرَّمية كلمة فصيحة[٤٨]. فالكلمة إذا كانت فصيحة بالغة، شعرًا أو نثرًا، وصادفت موقعها فعلت في القلوب فعل السحر واستبدت بالعقول وكان حكمها ماضيًا وأمرها مقضيًا، وسنمرّ بطرف من ذلك في حديثنا عن أثر اللسان، ومن ذلك ماذكره ابن رشيق قال: دخل سديف بن ميمون على أبي العباس السفاح وعنده سليمان بن هشام بن عبد الملك وابناه فأنشد سديف:

لاَ يَغُرَّنْكَ مَا تَرَى مِن أُنَاسٍ ... إِنَّ بَيْنَ الضُّلُوعِ دَاءً دَوِيَّا

فَضَعِ السَّيفَ وَارْفَعِ السَّوْطَ حَتَّى ... لا تَرَى فَوقَ ظَهْرِهَا أُمَوِيَّا

فقال سليمان: «قتلتني ياشيخ قاتلك الله. ونهض أبو العباس فوضع المنديل في عنق سليمان وقُتِل من ساعته»[٤٩].

---

[٤٧] ابن عبد ربه: العقد الفريد، ١٣٩/٣.

[٤٨] الميداني: مجمع الأمثال، ٣١٠/١، العقد الفريد ١٢٣/١.

[٤٩] القيرواني: العمدة ٦٢/١.

www.mtenback.com

فقد أصاب سديف مقتلاً بما استشهد به، ووقع الكلام من قلب السفاح موقعًا لا يردّ، وأدرك سليمان أثر الكلام وأيقن بالخاتمة. وهذا يريك أثر البيان في نفوس أولئك القوم، فالأول أجاد التمثيل والثاني أجاد الفهم والثالث أجاد الحدس، وكل ذلك بتأثير بيتين من الشعر، وهذا شيء استقصاؤه يطول.

وتظهر أهمية البيان في المحاجة بالردّ الشافي والجواب الكافي والكلمة الدامغة والحجة البالغة والفصاحة النادرة بين الأنداد وذوي السلطان وأهل الحجا والنباهة والبديهة والشجاعة فيما يعرف بالأجوبة التي جعلها ابن عبد ربه «من أصعب الكلام مركبا وأعزه مطلبًا وأغمضه مذهبًا وأضيقه مسلكًا؛ لأن صاحبه يعجل مناجاة الفكرة واستعمال القريحة يروم في بديهة ما أبرم في رويّة... فلا يزال في نسج الكلام واستئناسه حتى إذا اطمأن شارده وسكن نافره ضَكّ به خصمه جملة واحدة»[٥٠].

وهو ضرب من الكلام لا ينقاد إلا لضليع في الفصاحة ذي دربة ومكنة فيها؛ لأن أحسن الأجوبة ما كان حاضرًا مع إصابة المعنى وإيجاز اللفظ، وهو ضرب من البيان عزيز. وكان معاوية بن أبي سفيان كثير التعرض لأهل الفصاحة يستخرج بذلك مكنونات صدورهم وجواهر منظومهم ومنثورهم، وربما أصابته من بعضهم لذعات ممضة ولكن كان في الرجل حلم يغطي على كل سفه وفيه توطين لنفسه على مقابلة كل ذلك بالرد الجزيل أو الصفح الجميل. دخل عليه عقيل بن أبي طالب يومًا فقال لأصحابه هذا عقيل عمّه أبو لهب، فقال له عقيل: وهذا معاوية عمته حمالة الحطب. وقال لرجل من اليمن: ما كان أجهل قومك حين ملكوا عليهم امرأة، فقال له الرجل: أجهل من قومي قومك الذين قالوا حين دعاهم الرسول ﷺ: ﴿اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[٥١]. ولم يقولوا:

---

[٥٠] ابن عبد ربه: العقد الفريد ٤/٤.

[٥١] سورة الأنفال: ٣٢.

www.mtenback.com

اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا إليه. ودخل عليه خريم الناعم فنظر إلى ساقيه فقال: أيّ ساقين لو أنهما على جارية! قال خريم في مثل عجيزتك يا أمير المؤمنين؛ فقال معاوية واحدة بأخرى والبادي أظلم[٥٢]. وكان مسلمة بن عبد الملك أجمل الناس وكان من أحضر الناس جوابًا فمرّ بموسوس على مزبلة فقال له الموسوس: لو رآك أبوك آدم لقرّت عينه بك. فقال مسلمة: لو رآك أبوك آدم لأذهبت سخنة عينه بك قرة عينه بي[٥٣].

وهذه الأجوبة وأشبابها هي أمثلة حقيقية على البيان المطبوع الذي هو نتاج القرائح الصحيحة والألسنة الفصيحة.

ومن الكلام الذي يدل على رجاحة العقل ووفوره وتوقُّد الذهن وحضوره، وطلاقة اللسان وحلاوته، وانقياد اللفظ الفصيح وطلاوته قول معن بن زائدة وقد دخل على أبي جعفر المنصور فقال له: كبرت يامعن. قال: في طاعتك يا أمير المؤمنين قال: وإنك لجلد. قال: على أعدائك يا أمير المؤمنين، قال: وفيك بقية، قال:هي لك يا أمير المؤمنين. قال: أي الدولتين أحب إليك أو أبغض؛ أدولتنا أم دولة بني أمية؟ قال: ذلك إليك يا أمير المؤمنين، وإن زاد برّك على برهم كانت دولتك أحبّ إليّ، وإن زاد برهم على برك كانت دولتهم أحب إليّ.قال: صدقت. وقال المأمون ليزيد بن مزيد: ما أكثر الخلفاء في ربيعة! قال: بلى ولكن منابرهم الجذوع[٥٤]. أراد أن من يستغل فصاحته في الخطابة المحرضة على السلطان يكون نصيبه الصّلب. فهذه أجوبة ما أعدها أصحابها ولا علموا أنهم سيسألون عنها ولكنه صوب العقول الرزينة سحائب تعقبها سحائب.

---

[٥٢] ابن عبد ربه: العقد الفريد ٣١/٤.

[٥٣] المصدر السابق، ٤١/٤.

[٥٤] المصدر السابق، ١٣٠/٢.

www.mtenback.com

ولما كانت الإبانة عمّا في النفوس هي غرضهم والبيان هو مطلبهم فقد اكتفوا بالاختصار والإيجاز واللمحة الدالّة والإشارة العابرة متى ما أبان ذلك عما يريدون، بل جعلوا البلاغة في بعض معانيها وتعريفاتها: إيجاز الكلام وحذف الفضول. وقال بعضهم إذا كفاك الإيجاز فالإكثار عيٌّ، وإنما يحسن الإيجاز إذا كان هو البيان. وقال الشاعر:

خَيْرُ الكَلام قَليلٌ عَلَى كَثِيرٍ دَلِيلُ
والعَيُّ معنًى قَصَيرٌ يَحْوِيهِ لَفْظٌ طَوِيلُ

وقالوا: البلاغة لمحة دالّة على ما في الضمير. وهي ما كان من الكلام حسنًا عند استماعه موجزًا عند بديهته، وفهمته العامة ورضيته الخاصة. ومن أمثالهم في البلاغة قولهم: يقل الحزّ ويطبق المفصل، وذلك أنهم شبهوا البليغ الموجز الذي يقل الكلام ويصيب الفصول والمعاني بالجزار الرفيق يقل حزّ اللحم ويصيب مفاصله[٥٥].

والإيجاز هو الكلام البالغ الذي يغني قليله عن كثيره ولا يُحتاج بعده إلى كلام. ومنه جملة غزيرة من أحاديث الرسول ﷺ جاءت موجزة مختصرة ولكنها محتوية على معان لو قصد استقصاؤها وبسطها لاحتاج ذلك إلى أسفار وأسفار؛ لأن كلامه هو جوامع الكلم ومعجزات البلاغة والفصاحة كقوله ﷺ: «كفى بالصحة داءً»، و«المرء مخبوء تحت لسانه»، و«ليس الخبر كالمعاينة»، و«المرء كثير بأخيه»، «الحرب خدعة»، و«البلاء موكل بالمنطق»، و«الناس كأسنان المشط»، و«الناس بزمانهم أشبه منهم بآبائهم»[٥٦]. وحصر كلامه الموجز البليغ لا يكون وإنما المراد التمثيل.

---

[٥٥] ابن عبد ربه: العقد الفريد ٢/٢٦٠.

[٥٦] ابن منقذ: لباب الآداب ص ٢٣٠.

www.mtenback.com

وفي أقوال السلف نماذج من الكلام البليغ الموجز لا يمكن للبـــاحث تجاوزهـــا، كقول أبي بكر رضي الله عنه: التقيّ ملجم. وقول عليّ رضي الله عنه: قيمة كل امرئ مايحسن. قال الجاحظ: فلو لم نقف من هذا الكتاب إلا على هذه الكلمة لوجدناهـــا شافية كافية، ومجزية مغنية. وكان ابن مسعود يقول: «ما شيء أولى بطول حبس مـــن لسان»[٥٧].

وللعرب عمومًا من موجز اللفظ ولطيف المعنى فصول طويلة. ولعل حرصهـــم على الإيجاز والاختصار هو من باب التفصّح أو طلب السلامة، وكان بكر بن عبد الله المزني يقلُّ الكلام فقيل له في ذلك، فقال: لساني سبع إن تركته أكلني. وقيل لبعضهـــم في الإيجاز فقال: يكفيك من الزاد ما بلغك المحل[٥٨].

ومن الإيجاز أمثال العرب التي لخصت تجاربهم الطويلة والمعاني الجليلة بالألفاظ القليلة. وقد اهتموا بها لأنها وشي الكلام وجوهر اللفظ وحلي المعاني وهي أسير مـــن الشعر وأبقى منه وأشرف من الخطابة بل هي أسير من جميع فنون القول، حتى قـــالوا: «أسير من مثل»[٥٩].

فأنت ترى العرب لأهمية البيان في نفوسهم توصلوا إلى المعاني المرادة بـــالكلام الطويل والكلام الموجز على السواء لأن المعاني هي غرضهم فإذا حصلوهـــا بهـــذا أو بذاك فتلك بغيتهم. لذلك حصر الجاحظ أدوات البيان وجميع أصناف الدلالات علـــى المعاني في خمسة أشياء منها اللفظ والإشارة.

أما اعتمادهم في البيان على اللمحة الدالّة - وهي ضرب من الإيجاز - فذلـــك أكثر من أن يتقصى، قال المنصور لمسلم بن قتيبة: ماترى في قتل أبي مســـلم؟ قـــال:

---

[٥٧] الجاحظ: البيان والتبيين ٨٣/١.

[٥٨] الوشاء، أبو الطيب محمد بن يحيى: الموشّى، بيروت، دار بيروت، (١٩٨٠م)، ص١٨.

[٥٩] ابن عبد ربه: العقد الفريد ٦٣/٣.

www.mtenback.com

﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾[٦٠]. قال: حسبك أبا أمية. وقيل لعقيل بن علفة: مالك لا تطيل الهجاء؟ قال: يكفيك من القلادة ما أحاط بالعنق.

وقيل لعلي رضي الله عنه: كم بين المشرق والمغرب؟ قال: مسيرة يوم للشمس. وقيل له كم بين السماء والأرض؟ قال: مسيرة ساعة لدعوة مستجابة. وقال جعفر البرمكي لكتابه: إن استطعتم أن تكون كتبكم توقيعات فافعلوا[٦١].

والتوقيعات نفسها من اللمح الدالة والكلام البليغ الموجز وقد كانت للعرب فيها إبداعات وكانت للملوك والخلفاء والوزراء فيها فنون؛ أوعز الرشيد إلى جعفر بن يحيى أن يعزل أخاه الفضل عزلاً ليناً عن الخاتم ويأخذه إليه؛ فكتب إليه. قد رأى أمير المؤمنين أن ينقل خاتم خلافته من يمينك إلى شمالك. فكتب إليه الفضل: ما انتقلت مني نعمة صارت إليك ولا خصّتْك دوني[٦٢].

وهذا كله تأكيد لأهمية المعاني عندهم وأن كل لفظ أبان عن المعنى طال أو قصر فهو مقصدهم، مع ميل ظاهر فيهم إلى الإيجاز مع البيان.

وما أحوج الناس في زماننا إلى السير على طريق هؤلاء المجودين، ولو فعلوا لكان لهم في ذلك شرف وثروة، وما أكثر ما نحتاج الآن في معاملاتنا ومكاتباتنا إلى مثل هذا الإيجاز البديع، فكم من شروح وتعليقات يكتبها كبار من يتسنمون المناصب العليا ما عرفت منهم إلا قلة تحسن ذلك أما سائر ما يصدر في عالمنا العربي اليوم فهو ابن بيئته وسليل عصره. هذا مع أن الشرح البليغ والتعليق الطريف أدعى إلى الاهتمام بالمكتوب وتنفيذ ما جاء فيه ولكن بين عصرنا الحاضر وبين الأساليب الأدبية البليغة بون شاسع.

أما الإشارة فضرب من ضروب البيان له أهمية لا تنكر. وقد تحدث الناس عنها وأفاضوا. ومن أمثالهم: «رب إشارة أبلغ من عبارة، ورب طرف أفصح من

---

[٦٠] سورة الأنبياء: ٢٢.

[٦١] ابن عبد ربه: العقد ١/١٣٠، ٢/٢٦٨، ٣/٢٦٩.

[٦٢] ابن عبد ربه: العقد ٢/٢٧٢.

www.mtenback.com

لسان»[٦٣]. يقول الأندلسي: «ليس لأن الإشارة تبيّن ما لا يبينه الكلام وتبلغ ما يقصر عنه اللسان، ولكنها إذا قامت مقام اللفظ وسدت مسدّ الكلام كانت أبلغ لقلة مؤونتها وخفة محملها»[٦٤]. وهذا أيضًا يؤكد أن المعوّل إنما هو على البيان ومهما كان السبيل إليه فلا فرق، ولكن يظهر لك أيضًا تفضيلهم أقصر السبل.

يقول الجاحظ: الإشارة واللفظ شريكان، ونعم العون هي له، ونعم الترجمان هي عنه، وما أكثر ما تنوب عن اللفظ، وما تغني عن الخطّ. وبعدُ فهل تعدو الإشارة أن تكون ذات صورة معروفة وحلية موصوفة على اختلافها في طبقاتها ودلالاتها. وفي الإشارة بالطرف والحاجب وغير ذلك من الجوارح مرفق كبير ومعونة حاضرة في أمور يسترها بعض الناس من بعض ويخفونها من الجليس وغير الجليس. ولولا الإشارة لم يتفهّم الناس خاص الخاص ولجهلوا هذا الباب البتة.. وقد قال الشاعر في باب دلالات الإشارة:

أَشَارَتْ بِطَرْفِ العَيْنِ خِيفَةَ أَهْلِهَا ... إِشَارَةَ مَذْعُورٍ وَلَمْ تَتَكَلَّمِ

فَأَيْقَنْتُ أَنَّ الطَّرْفَ قَدْ قَالَ مَرْحَبًا ... وَأَهْلاً وَسَهْلاً بِالحَبِيبِ المُتَيَّمِ

وقال الآخر[٦٥]:

وَلِلقَلْبِ عَلَى القَلْبِ ... دَلِيلٌ حِينَ يَلْقَاهُ

وَفِي النَّاسِ مِنَ النَّاسِ ... مَقَايِيسٌ وَأَشْبَاهُ

وَفِي العَيْنِ غِنًى لِلمَرْ ... ءِ أَنْ تَنْطِقَ أَفْوَاهُ

---

[٦٣] الميداني: مجمع الأمثال، ٣٠٦/١.

[٦٤] ابن عبد ربه: العقد، ١٥٥/٤.

[٦٥] الجاحظ: البيان والتبيين، ٧٨/١.

www.mtenback.com

فتراهم هنا قدموا الإشارة على اللفظ لأنها قامت بوظيفة البيان خير قيام، ولولا أن البيان هو العمدة عندهم لما قدموا الإشارة على المنطق. وهي قد تغني عن كلام كثير وتكون في بعض المواضع أقوى أثرًا من الكلام مهما طال. قالوا خطب عبد الملك بن مروان مرة فقال: أيها الناس، ما أنا بالخليفة المستضعف ولا بالخليفة المداهن ولا بالخليفة المأفون، فمن قال برأسه كذا قلنا بسيفنا كذا ثم نزل[٦٦].

أراد - سامحه الله - بالخليفة المستضعف عثمان، وبالخليفة المداهن معاوية وبالمأفون يزيد بن معاوية. وليست العبرة هنا بهذا التعريض والتلميح الذي هو ضرب من ضروب الفصاحة والبيان على ما فيه من الجرأة على اثنين من الصحابة، ولكن المعول على قوله: من قال كذا قلنا له كذا واكتفاؤه بالإشارة التي هي هنا في هذا الموضع أبلغ من كل كلام.

ومن أدوات البيان الكتابة أو الخط، فقد منّ الله تعالى على خلقه أن علمهم بالقلم وأقسم به في كتابه المحكم، ﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾[٦٧] وذلك لأهميته في البيان والتعبير عمّا في النفوس، وقالت الأدباء: القلم أحد اللسانين، وهو أبقى أثرًا. وفرصة الكاتب في التجويد واجتناب المناقص والزلل أكبر من فرصة الخطيب المشافه واستعمال القلم أجدر أن يحضّ الذهن على تصحيح الكتّاب من استعمال اللسان على تصحيح الكلام، وذلك لتوافر فرصة المعاودة والمراجعة. واللسان موقوف على القريب الحاضر مقصور عليه أما القلم فمطلق في الشاهد والغائب.

والكتاب يقرأ بكل مكان ويدرس في كل زمان واللسان لا يعدو سامعه ولا يتجاوزه إلى غيره، كان ذلك في الزمان القديم، أما الآن فإن المبتكرات الحديثة جعلت كلام اللسان مما يمكن سماعه في كل مكان وإعادة سماعه في كل زمان. ولكن الكتابة -

---

[٦٦] ابن عبد ربه، العقد الفريد، ج٤، ص٤٠١.

[٦٧] سورة القلم: ١-٢.

www.mtenback.com

وهي صنو الخطابة – تظل صاحبة الأثر الأقوى في زماننا. والقلم هو أداة البيان العصرية الفعالة على أسلاته تسيل عقول المفكرين وأذهان البلغاء.

وأنت ترى العرب قد تدرجت في أمر البيان وأدواته ورضوا بالتطويل والإطناب والإسهاب إذا اقتضى المقام ذلك؛ كما في أمور الدعوة من بسط وجوه القول واستعراض الحجج، وكالمناظرات بين المتخاصمين وغيره. ثم مالوا إلى الإيجاز متى كانت العبارة موفية على الغرض، ثم اكتفوا باللمحة الدالة متى كانت بليغة ومفهمة ثم اكتفوا من كل ذلك بالإشارة فقط ووجدوها تسُد مسدّ الكلام بل توفي عليه وذلك حين يتعذر الكلام أو يضيق الوقت. ولكن من حرصهم على الإحسان في الجواب مالوا إلى تفضيل الصمت وعدوه بيانًا إذا لم تكن نتائج الكلام إلا عيًّا وفهاهة لذلك مدحوا الصمت في موضعه وإبّانه كما مدحوا الكلام في موضعه وأوانه؛ فقالوا: السكوت سلامة، والصمت حكم وقليل فاعله، وسكت ألفًا ونطق خلفًا[٦٨]، زيادة في التشديد على الصمت. يقول الوشاء: «فحقيق على الأديب أن يخزن لسانه عن نطقه ولا يرسله في غير حقه، وأن ينطق بعلم وينصت بحلم، ولا يعجل في الجواب ولا يهجم على الخطاب، وإن رأى أحدًا هو أعلم منه نصت لاستماع الفائدة عنه، وتحذّر من الزلل والسقط، وتحفظ من العيوب والغلط ولم يتكلم فيما لا يعلم، ولم يناظر فيما لم يفهم، فإنه ربما أخرجه ذلك إلى الانقطاع والاضطراب وكان فيه نقصه عند ذوي الألباب... ولئن كان السكوت جميلا، لقد جعل الكلام جليلا، ما لم يتعدّ المتكلم في كلامه، ويتجاوز في الكلام حدّ نظامه، أنشدني أحمد بن يحيى ثعلب[٦٩]:

مَا فِي الكَلاَمِ عَلَى الأَنَامِ أَثَامُ بَلْ فِيهِ عِنْدِي النَّقْضُ والإبْرَامُ

---

[٦٨] ابن عبد ربه: العقد الفريد، ٣/٨٢.

[٦٩] الوشاء: الموشّى: ١٦-١٨.

www.mtenback.com

لَـولاَ الكَـلامُ لمـا تَبَيَّنَّـا الهُـدَى   وتعطَّلَـتْ في دِينِنَـا الأحْكَـامُ

فمنهم من يمدح الصمت ومنهم من يذمه وكل يحاول وجهًا.

والذين مدحوا الصمت كانوا يتحفظون من الكلام المفضي إلى العورات، لذلك كانوا يضربون المثل المشهور: جنت على نفسها براقش. قال الجاحظ: قصته أنّ براقش هذه كلبة لحي من العرب نبحت قومًا غزاة قد مرّوا من ورائهم وقد رجعوا خائبين مخفقين، فلما نبحتهم استدلوا بنباحها على أهلها واستباحوهم، ولو سكتت كانوا سلموا[٧٠].

وفاضل الجاحظ بين الكلام والصمت وأجاد وكان من قوله: وإنما حثوا على الصمت لأن العامة إلى معرفة خطأ القول أسرع منهم إلى معرفة خطأ الصمت. ومعنى الصامت في صمته أخفى من معنى القائل في قوله، وإلا فإن السكوت عن قول الحق في معنى النطق بالباطل، ولعمري إن الناس إلى الكلام لأسرع؛ لأن في أصل التركيب أن الحاجة إلى القول والعمل أكثر من الحاجة إلى ترك العمل والسكوت عن جميع القول. وليس الصمت كله أفضل من الكلام كله، ولا الكلام كله أفضل من السكوت كله، بل لقد علمنا أن عامة الكلام أفضل من عامة السكوت... وكيف يكون الصمت أنفع والإيثار له أفضل ونفعه لا يكاد يجاوز رأس صاحبه، ونفع الكلام يعم ويخص. والرواة لم ترو سكوت الصامتين كما روت كلام الناطقين، وبالكلام أرسل الله أنبياءه لا بالصمت. ومواضع الصمت المحمودة قليلة، ومواضع الكلام المحمودة كثيرة وطول الصمت يفسد اللسان[٧١]. ولكن التوجيه النبوي الكريم هو الفيصل في ذلك، وهو قوله: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليصمت». وقوله: «رحم الله

---

(٧٠) الجاحظ: البيان ١/ ٢٧٠.

(٧١) الجاحظ: البيان ١/٢٧١-٢٧٢.

www.mtenback.com

امرأً قال خيرًا فغنم أو سكت فسلم»، أو قال: «رحم الله من سكت فسلم أو قال فغنم» فالصمت والكلام موقوفان على النفع والفائدة ومتى تحصّل ذلك في أحدهما كان خيرًا من الآخر. والإبانة أيضًا فائدة فمتى قام بها أحدهما أغنى عن صاحبه.

وخلاصة القول أن البيان عند العرب على درجة من الأهمية لا يرقى إليها غيره لأن به جلب النفع ودفع الضرّ؛ لذلك تعددت أدواته عندهم وتراوحت بين الكلام الطويل الفصيح الذي يقتضيه المقام وبين الكلام المختصر الموجز المؤدي إلى المعنى المراد، سواء كان ذلك منطوقًا أو مكتوبًا، وبين اللمحة الدالة والإشارة المفهمة، بل وصل بهم الأمر إلى الاكتفاء بالصمت إذا كان فيه بيان لأن في الصمت كلامًا في بعض الأحايين. وهم في كل ذلك إنما يحاولون البلاغة وهي إيصال المعاني إلى المتلقين بأقرب السبل، وهو البيان الذي هو مطلبهم وغايتهم من الكلام.

أثر فصاحة اللسان:

لا ينكر أحد ما للكلام الفصيح، مكتوبًا كان أو منطوقًا، من أثر بالغ في النفوس حتى قالوا: أنفذ من الرمية كلمة فصيحة، وقالوا: رب قول أنفذ من صول. فالكلام البليغ يجلي الحقائق ويبين عما في النفوس، فلا عجب أن جعله الله نعمة من نعمه على خلقه. ولا غرابة في اهتمام العرب بالفصاحة والبيان فبهما يصلون إلى ما يريدون ويجتنبون ما يكرهون.

وفصاحة اللسان وسيلة إلى الإفادة والاستفادة، والعيّ والحصر يمنعان من ذلك وهذا أمر نعايشه بالتجربة اليومية؛ فقد يشدك المتحدث ذو العبارة الناصعة والأسلوب البليغ فتستمع إليه وتثقف ما عنده وإن لم يكن ما يقوله ذا بال. وقد يتحدث آخر في أمر عظيم جسيم ولكنه لا يبين عنه ولا يملك من آلة البيان ما يعينه على إيصال رسالته إلى المستمع فينصرف عنه دون أن يجتني شيئًا على الرغم من نفاسة الحديث وكما يقولون فقد يتضاءل المعنى الحسن تحت اللفظ القبيح كتضاؤل الحسناء تحت الثياب الرثّة.

www.mtenback.com

فاللسان «أداة يظهر بها حسن البيان وظاهر يخبر عن ضمير وشاهد ينبئك عن غائبٍ وحاكم يفصل به الخطاب وناطق يرد به الجواب وشافع تدرك به الحاجة وواصف تعرف به الحقائق ومعز ينفى به الحزن ومؤنس تذهب به الوحشة وواعظ ينهى عن القبيح ومزين يدعو إلى الحسن... وحاصد يستأصل الضغينة»[٧٢] وهذه الوظائف كلها وغيرها يقوم بها اللسان وينهض بها البيان.

وقد تحدث العرب عن اللسان وأثره فأكثروا، جاء في الأثر: «المرء مخبوء تحت لسانه». وقال خالد بن صفوان: ما الإنسان لولا اللسان إلا صورة ممثلة أو بهيمة مهملة. وقال هشام بن عبدالملك: إن الله رفع درجة اللسان فأنطقه من بين الجوارح. وقال آخر: إنما يبين عن الإنسان اللسان وعن المودة العينان. وقال شاعرهم:

وَمَا المَرْءُ إلاَّ الأَصْغَرَانِ، لِسَانُهُ ... وَمَعْقُولُهُ، والجِسْمُ خَلْقٌ مُصَوَّرُ

وقال زهير:

وكائنْ تَرَى مِنْ صَامِتٍ لَكَ مُعْجِبٍ ... زِيَادَتُهُ أَوْ نَقْصُهُ في التَّكَلُّمِ

لِسَانُ الفَتَى نِصْفٌ ونِصْفٌ فُؤَادُهُ ... فلم يَبْقَ إلا صُوْرَةُ اللَّحْمِ والدَّمِ

وقالوا في أثره: ربّ لسان أقطع من حسام. وقالوا: القول ينفذ مالا تنفذ الإبر. ولما رأوا خطره قالوا: ما شيء أولى بطول حبس من لسان[٧٣] فالعاقل لا يطلق لسانه إلا إذا أيقن إصابة القول. لذلك جاء في الأثر: «وهل يكب الناس على مناخرهم في النار إلا حصائد ألسنتهم».

---

[٧٢] الحصري: زهر الآداب ١/٤٠؛ ابن عبد البر، يوسف بن عبد الله: بهجة المجالس وأنس المجالس، تحقيق: محمد مرسي الخولي، بيروت، دار الكتب العلمية، ج١، ص٥٨.

[٧٣] ابن عبد ربه: العقد الفريد، ١/١٧٠، ٤/١٨٩.

www.mtenback.com

فلسان المرء وفصاحته معيار صادق لقدره، وبفصاحة اللسان تبلغ الرسالات السماوية، وهو المخرج من المآزق، وبه يرفع الضيم وتستأصل الضغائن، وهو جالب المحبة ومبلّغ الدرجات. وكلما كان المرء فصيحًا متمكنًا من البيان أوغل في الدين برفق ولم يشب عقيدته دخل، لذلك ذهب الناس إلى أن قوة العقيدة تابعة لنقاء اللغة، يقول الرافعي: «وذلك فيما نرى أنما هو وجه الحكمة في نشأة هذا الدين عربيًا واختصاص العرب بالقرآن دون غيرهم من الأمم، وإفراد قريش بذلك دون غيرها من العرب. ومن يقرأ صور التاريخ في الإسلام ويعتبر حوادثه ويتدبر آثار القرآن في قبائل العرب يرَ أن شدة الإيمان كانت عند شدة الفصاحة وأن خلوص الضمائر كان يتبع خلوص اللغة. وأن القائمين بهذا الدين والذين أفاضوه وصرفوا إليه جمهور العرب وقاتلوهم عليه وجمعوا لغتهم وقوموا أودهم إنما كانوا أهل الفصاحة الخالصة من قريش إلى سرة البادية. وأن الفتن إنما استطارت في الجزيرة استطارة الحريق فيمن وراء هؤلاء إلى أطراف اليمن. فكانوا قومًا مدخولين منقوصين وما كان ضعف اعتقادهم إلا في وزن الضعف من لغتهم ... وغربة الدين ماتزال تتبع غربة العربية... وحسبك من أثر القرآن في العرب الفصحاء وصوغ فطرتهم وتصريفهم أن أحدهم كان إذا اتهم في بعض أخلاقه لم ينكر ذلك بأشد من قوله: بئس حامل القرآن أنا إذن. ولما أعطي سالم مولى أبي حذيفة راية المسلمين يوم قتال مسيلمة الكذاب - وكان من أشد الأيام وأعظمها نكاية - قال لأصحابه: ما أعلمني لأي شيء أعطيتمونيها! قلتم: صاحب قرآن وسيثبت كما ثبت صاحبها قبله حتى مات! قالوا: أجل، وانظر كيف تكون! قال: بئس والله حامل القرآن أنا إن لم أثبت... وفي هذه الوقعة صاح أبو حذيفة وقد اضطرب المسلمون: يا أهل القرآن، زينوا القرآن بالفعال! ثم حمل على القوم فحازهم حتى أنفذهم»[٧٤].

[٧٤] الرافعي: إعجاز القرآن ص ١٦٥.

www.mtenback.com

وهذا من أكبر الأدلة على أثر الفصاحة في النفوس خصوصًا حينما تقترن بالعقيدة، أو تكون وسيلة لتبليغ الدعوة. ولعلمهم بقوة أثر اللسان في البلاغ أطال الجاحظ في الحديث عن موسى عليه السلام وسؤاله الله عز وجل حين بعثه إلى فرعون بإبلاغ رسالته والإفصاح عن حجته والإبانة عن أدلته، فقال حين ذكر العقدة التي كانت في لسانه والحبسة التي كانت في بيانه: ﴿وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي يَفْقَهُوا قَوْلِي﴾[٧٥].

هذا مع أن الله تعالى أعطاه الحجة البالغة والعلامات الظاهرة والبراهين الواضحة واستجاب دعوته فحل عقدة لسانه وآزره بأخيه هارون، كل ذلك من أجل الحاجة إلى حسن البيان. وتكلم الجاحظ أيضًا عن معاناة واصل بن عطاء وأخذه نفسه بالرياضة العسيرة والعنت الذي صبر عليه «فلم يزل يكابد ذلك ويغالبه ويناضله ويساجله ويتأتى لستره والراحة من هجنته حتى انتظم له ما حاول واتسق له ما أمّل»[٧٦] وذلك أن واصلاً كانت فيه لثغة قبيحة في الراء فكانت تشين منطقه فراض نفسه رياضة عسيرة بأن يجتنب كل كلمة في اللغة اشتملت حروفها على ذلك الحرف، وقد انقاد له ذلك بطول الدربة وسعة المحفوظ والثروة اللغوية. ولولا الحاجة الماسة إلى محاجة الخصوم ومفاوضة الإخوان ومقارعة الأقران، وإقناع الناس بمذاهبهم لما سألوا ما سألوا، ولا حاولوا، وجدّوا في الرياضة والطلب.

وفي تتبع البحث لأثر اللسان كان التركيز في الأخبار التي استشهد بها على ماكان من المخاطبات بالسليقة وهجم فيه على المتكلم هجومًا فكان ردّه ارتجالاً بالسليقة لأن الكلام المعدّ والخطاب المحكك يحتمل الصنعة وتكلف التنقيح وذلك أدعى لتجويده والافتنان فيه ولكن الكلام إذا كان ابن ساعته ووليد لحظته من غير إعداد سابق دلّ على علوّ الفصاحة وصحة الذهن ورسوخ الطبع.

---

[٧٥] سورة طه: ٢٧-٢٨.

[٧٦] الجاحظ: البيان والتبيين ١/١٥، ١/٧.

www.mtenback.com

ومما رواه الأدباء وتناقلته المصنفات في أثر اللسان ووقع الفصاحة على النفوس خبر قتيلة بنت النضر بن الحارث التي عرضت للرسول ﷺ وهو يطوف فاستوقفته وجذبت رداءه حتى انكشف منكبه الكريم وقد كان قتل أباها فأنشدته:

أَمُحَمَّدٌ هَا أَنْتَ نَجْلُ نَجيبةٍ ... من قَوْمِهَا والفَحْلُ فَحْلٌ مُعْرِقُ

مَاكَان ضَرَّكَ لَوْ مَنَنْتَ وَرُبَّمَا ... مَنَّ الفَتَى وَهْوَ المَغِيظُ المُحْنَقُ

والنَّضْرُ أَقربُ من قَتَلْتَ وَسِيلةً ... وأَحَقُّهُم إن كان عِتْقٌ يُعْتَقُ

فقال النبي ﷺ: لو كنت سمعت شعرها هذا ما قتلته.(٧٧)

فهذا يريك مقدار أثر الكلام البليغ الفصيح حتى يصل إلى درجة العتق من الموت. وكم من كلمة فصيحة وعبارة بليغة حقنت دمًا أو أذهبت ضغنًا أو هدّأت ثائرة. قال ابن عبد ربه: أقبل أبو جعفر المنصور يومًا راكبًا والفضل بن فضالة جالس عند باب الذهب (ببغداد) فقام الناس إليه و لم يقم، فاستشاط المنصور غيظًا وغضبًا ودعا به، فقال: ما منعك من القيام مع الناس حين رأيتني؟ قال: خفت أن يسألني الله تعالى لم فعلت؟ ويسألك عنه لم رضيت؟ وقد كرهه رسول الله ﷺ، فسكن غضب المنصور وقرّبه وقضى حوائجه(٧٨).

ولو لم تكن للسان حسنة إلا الوصول إلى المعاني الجليلة بالألفاظ الواضحة القليلة لكان في ذلك مقنع. قيل لأحدهم: ما البلاغة: قال: الإيجاز في غير عجز والإطناب في غير خطل. وقيل لغيره ما البلاغة؟ قال: إقلال في إيجاز وصواب مع سرعة جواب. وقيل لأعرابي: من أبلغ الناس؟ قال: أسهلهم لفظًا وأحسنهم بديهة. وقال جعفر بن محمد: سمي البليغ بليغًا لأنه يبلغ حاجته بأهون سبيل. وسئل بعض

(٧٧) القيرواني: العمدة، ١/٥٦.

(٧٨) ابن عبد ربه: العقد الفريد ٢/١٤٦.

www.mtenback.com

الحكماء عن البلاغة فقال: من أخذ معاني كثيرة فأداها بألفاظ قليلة، وأخذ معاني قليلة فولّد منها لفظًا كثيرًا فهو البليغ. وقال الشاعر[٧٩]:

فـإذَا نَطَقْـتَ فَـلاَ تَكُـنْ أَشِـرًا واقْصِرْ فَخَيْرُ النَّـاسِ مَـنْ قَصَـرَا

فاللسان الفصيح هو الذي يبلغك حاجتك بلا جهد، فيقرب المعنى البعيد ويتجنب حشو الكلام ويدل بالقليل على الكثير فيخف على النفس ويبلغ المتكلم غرضه بوصول رسالته إلى المتلقي.

وكما رأينا في خطاب فضالة للمنصور فإن الكلمة اللينة تمتصّ الغضب وتهدئ الثائرة. يقول ابن عبد ربه: والكلام الرقيق مصايد القلوب، وإن منه لما يستعطف المستشيط غضبًا والمندمل حقدًا حتى يطفئ جمرة غيظه ويسل دفائن حقده وإن منه لما يستميل قلب اللئيم ويأخذ بسمع الكريم وبصره؛ وقد جعله الله وسيلة نافعة وشافعًا مقبولاً، قال تبارك وتعالى: ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾[٨٠].

ولا تجد فصيحًا لسنًا محسنًا إلا وجدت القلوب مائلة إليه والصدور منشرحة لحديثه فإذا حدّث أخذ عنه وإذا أمر ائتمر بأمره وإذا نهى وقف عند نهيه.

والحديث الفصيح يستل الضغينة ويجلب المحبة، وقد كان الحجاج بن يوسف – على شدّته – مثالاً وعلمًا في التراث العربي على الرجل الفصيح الذي يعلي شأن الفصاحة فيقدم بها ويؤخر ويعاقب ويعفو. ذكر ابن عبد ربه أن زياد بن عمرو العتكي كان ثقيلاً عند الحجاج لا يحبه، فلما أثنى الوفد على الحجاج عند عبدالملك بن مروان قال زياد: «يا أمير المؤمنين، إن الحجاج سيفك الذي لا ينبو، وسهمك الذي لا يطيش

---

[٧٩] ابن عبد ربه: العقد الفريد ٢/٢٦٣.

[٨٠] ابن عبد ربه: العقد الفريد ٢/١٢٢؛ سورة البقرة: ٣٧.

www.mtenback.com

وخادمك الذي لا تأخذه فيك لومة لائم. فلم يكن بعد ذلك أحد أخفّ على الحجاج ولا أحب إليه منه»[٨١].

كلمات فصيحة قليلة قلبت موازين الأمور وحولت الكره والاستثقال إلى محبة وإلفة، وهذه وظيفة معروفة للفصاحة، تؤثر في الحجاج وغيره. وما أكثر من أفلت من سيف الحجاج بفضل فصاحته وبلوغ حجته. قالوا: أُتي مرة بحرورية فقال لأصحابه: ما تقولون في هذه؟ فقالوا: اقتلها، أصلح الله الأمير ونكّل بها غيرها. فتبسمت الحرورية فقال: لم تبسمت؟ قالت: لقد كان وزراء أخيك فرعون خيراً من وزرائك يا حجاج؛ استشارهم في قتل موسى فقالوا: أرجه وأخاه، وهؤلاء يأمرونك بتعجيل قتلي. فضحك الحجاج وأمر بإطلاقها[٨٢].

وكم من فصيح تخلّص من أنشوطة الهلاك وتفلّت من حبائل المنية بحسن التنصّل ولطيف التوصل ولين الجواب ورقيق الاستعتاب ومقبول الاعتذار حتى عادت سيئاته حسنات ونال الثواب مكان العقاب. ذكروا أن مصعب بن الزبير أمر برجل من أصحاب المختار أن يضرب عنقه، فقال: أيها الأمير، ما أقبح بك أن أقوم يوم القيامة إلى صورتك الحسنة ووجهك هذا الذي يستضاء به فأتعلق بأطرافك وأقول: أي ربّ، سل هذا فيم قتلني؛ قال: أطلقوه فإني جاعل ما وهبت له من حياته في خفض، أعطوه مائة ألف؛ قال الأسير: بأبي أنت وأمي أشهد أن لابن قيس الرقيات منها خمسين ألفًا؛ قال: ولم؟ قال: لقوله[٨٣]:

إِنَّمَا مُصْعَبٌ شِهَابٌ مِنَ اللهِ ... تَجَلَّتْ عَنْ وَجْهِهِ الظَّلْمَاءُ

مُلْكُهُ مُلْكُ عِزَّةٍ لَيْسَ فِيهِ ... جَبَرُوْتٌ مِنْهُ وَلاَ كِبْرِيَاءُ

---

[٨١] ابن عبد ربه: العقد الفريد ١٣٧/٢.

[٨٢] المصدر السابق ١٧٤/٢.

[٨٣] المصدر السابق ١٧٣/٢

www.mtenback.com

يَتّقِـــي الله في الأمـــورِ وَقَـــدْ أَفْلَـحَ مـــن كـــانَ هَمّـــه الاتّقـــاءُ

فنجا هذا من الموت ونال من خفض العيش ما نال بسبب فصاحة لسانه وثبات جنانه. وأُتي الحجاج بأسرى فأمر بضرب أعناقهم، فقدم فيهم شاب فقال: والله يـــا حجاج لئن كنا أسأنا في الذنب فما أحسنت في العفو. فقـــال الحجـــاج: أفّ لهـــذه الجيف، أما كان فيهم من يقول مثل هذا؟! وأمسك عن القتل. (٨٤)

فانظر كيف نجا هذا الشاب وأنجى من بقي معه بكلمات قصيرة قليلة اشتملت على معنى جليل تجاوبت له نفس الحجاج على قسوته فكان العفو.

والكلام الفصيح يذهب الحزن ويخفّف وطأته، فهذا عمر بـــن الخطـــاب لمـــا استشهد زيد أخوه يوم مسيلمة دخل عليه متمم بن نويرة، فقال له: أنشدني بعض مـــا قلت في أخيك - يعني مالكًا ابن نويرة - فأنشده شعره الذي منه:

وكُنّـــا كَنَدْمَـــانَي جُذَيْمَـــةَ حِقْبَـــةً مِنَ الدَّهْرِ حَتَّى قِيْلَ لَـــنْ يَتَصَدَّعَـــا

فَلَمّـــا تَفَرَّقْنَـــا كَـــأَنِي وَمَالِكًـــــا لِطولِ اجتماعٍ لم نَبِـــتْ لَيْلَـــةً مَعَـــا

فقال له عمر: يا متمم لو كنت أقول الشعر لسرني أن أقول في زيد بن الخطّاب مثل ما قلت في أخيك، فقال متمم: يا أمير المؤمنين، لو قتل أخي مثل قتلة أخيك مـــا قلت فيه شعرًا - يريد أن زيدًا مات شهيدا وأن مالكًا قتـــل على الردة - فقـــال لـــه عمر: يا متمم ما عزاني أحد في أخي بأحسن مما عزيتني به(٨٥).

وروى العسكري أن العباس بن الحسن عزّى رجلاً فقال: إني لم آتك شاكًّا في عزمك زائدًا في علمك، ولا متهمًا لفهمك، ولكنه حق الصديق وقول الشفيق، فاســـبق السلوة بالصبر وقلق الحادثة بالشكر يحسن لك الذخر ويكمل لك الأجر(٨٦).

(٨٤) ابن عبد ربه: العقد الفريد ٢/١٧٤.

(٨٥) ابن قتيبة: الشعر والشعراء ٣٤٥.

(٨٦) ابن عبد ربه: العقد الفريد ٣/٣٠٩.

www.mtenback.com

وكان العباس هذا بمحل عال من الفصاحة حتى قيل: من أراد لذة لا تبعة فيها فليسمع كلام العباس بن الحسن.

ولهم في التعازي والمراثي كلام حاز صنوف الفصاحة وتسنم ذروة البلاغة ولا عجب أن جعل النقاد شعر الرثاء أصدق أشعار العرب لمكان العاطفة وشدة وطأة الفقد.

ومع ذلك كانت الكلمة الفصيحة تأسرهم وتسكّن ثائرة حزنهم. قال الأصمعي: دخلت على جعفر بن سليمان (الهاشمي) وقد ترك الطعام على أخيه محمد ابن سليمان، فأنشدته شعرًا فما برحت حتى دعا بالمائدة. والأبيات التي ذكرها الأصمعي هي لأراكة الثقفي، يقول فيها[٨٧]:

لَعَمْري لَئِن أَتْبَعْتَ عَيْنَكَ مَا مَضَى ... بِهِ الدَّهْرُ أَوْ سَاقِ الحِمَامُ إِلى القَبْرِ

لَتَسْتَنفِدَنْ مَاءَ الشُّؤون بَأَسْرِهِ ... وإِنْ كُنْتَ تمريهِنَّ من ثَبَجِ البَحْرِ

تَبَيَّنْ فإِنْ كَانَ البُكَا رَدَّ هالِكًا ... عَلَى أَحَدٍ فَاجْهَدْ بُكَاكَ عَلَى عَمْرِو

ولا غرابة في أن تزيل الفصاحة كدر النفوس وتجلو غمّتها وتذهب همّها، فإذا كانت الكلمة الفصيحة تفك الأسير وتعتق من تحت ظل السيف، كانت إلى اجتلاب السلوى وكفكفة الدمع وإذهاب الحزن أسرع.

وفصاحة اللسان أعون شيء على قضاء الحاجات، كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: إن خير ما أعطيته العرب أبيات يقدمها الرجل بين يدي حاجته يستعطف بها اللئيم ويستنزل بها الكريم، ولا تترك العرب الشعر حتى تترك الإبل الحنين[٨٨]. وذلك لعلمه بتأثير الشعر في النفوس. وكان عمر كثير الاستشهاد بالشعر

---

[٨٧] ابن عبد ربه: العقد الفريد ٣٠٦/٣.

[٨٨] الجاحظ: البيان والتبيين ٣٢٠/٢.

www.mtenback.com

يستفزه الشعر الفصيح المشتمل على الصدق ومكارم الأخلاق، وتؤثر فيه المواقف الإنسانية، فقد روى ابن رشيق أن أمية بن حرثان كان له ولد اسمه كلاب كان سأل عمر أن يضمه إلى جيوش المسلمين في إحدى الغزوات، فضمه إلى الجيوش التي تحارب في العراق، فلما كبر أبوه وضعف وطالت غيبة كلاب كتب إلى عمر رضي الله عنه أبياتًا منها:

سَأَسْتَعْدِي على الفَارُوق رَبًّا ... لَهُ عَمَدَ الحجيجُ إلى بُسَاقِ

إنِ الفاروقُ لَمْ يَرْدُدْ كُلاَبًا ... إلى شَيْخَيْنِ هَامُهُمَا زَاوقِي

فكتب عمر إلى أبي موسى بإشخاص كلاب، فما شعر أبوه إلا به يقرع الباب[٨٩].

وكان رحمه الله إذا سمع رجلاً يتلجلج في كلامه قال: خالق هذا وخالق عمرو ابن العاص واحد. ودخل عليه كعب الأحبار وهو على فراش، وعن يمينه ويساره وسادتان، فقال له عمر: اجلس يا أبا إسحاق، وأشار بيده إلى الوسادة، فثناها كعب وجلس على البساط. فقال له عمر: ما يمنعك أن تجلس على الوسادة؟ قال: فيما أوصى سليمان بن داود عليهما السلام: لا تغش السلطان حتى يملك، ولا تنقطع عنه حتى ينساك، وإذا دخلت عليه فاجعل بينك وبينه مجلس رجل أو رجلين، فعسى أن يأتي من هو أولى منك بذلك المجلس. فاستلقى عمر رضي الله عنه وقال: ﴿وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾[٩٠]. وكان عمر كثير الإعجاب بصحة العقل وفصاحة الكلمة. وكان ينزل الناس منازلهم على مقدار ألسنتهم وعقولهم.

---

[٨٩] القيرواني: العمدة ١/٥٨.

[٩٠] ابن منقذ: لباب الآداب ٢٣٣. و الآية ١٥٩ من سورة الأعراف.

www.mtenback.com

وذكر بعض شراح ديوان المتنبي أن أعرابيًا دخل على يزيد بن المهلّب فقال له: كبرت أن يستعان بمثلك أو يستعان عليك، وليس من شيء، وإن كبر إلا وهو صغير عندك وأنت أكبر منه. ولا أرى العجب أن تفعل وإنما العجب في ألا تفعل. فقال يزيد: حاجتك؟ قال: عشر ديات. قال: هي لك ومثلها.

فانظر كيف وصل هذا الأعرابي إلى مراده وأربى عليه بفضل فصاحته وإبانته وحسن عبارته. وما أكثر ما سمعنا بمنْ حشي فمه درًا ومن ملئ حجره دنانير ودراهم ومن وزن ما ألفه من كتب بمثله ذهبًا. وكله انفعال بالبلاغة والفصاحة ودليل على عظم تأثيرها في النفس حتى تحدث في الأصيل نخوة ونشوة فتسمح نفسه فيسخو ويجود بالمطلوب وفوق المطلوب.

والفصاحة ترفع الصغير فوق منزلته، وخيرًا فعل العرب حين جعلوها مقياسًا للتقديم ومؤهلاً للمناصب؛ لأن لسان الرجل وافد عقله ورسول فؤاده. قال ابن منقذ: قحطت البادية في أيام هشام بن عبدالملك فقدمت العرب من أحياء القبائل، فجلس هشام لرؤسائهم، فدخلوا عليه وفيهم درواس بن حبيب وله أربع عشرة سنة، عليه شملتان وله ذؤابة، فأحجم القوم وهابوا هشامًا، ووقعت عين هشام على درواس فاستصغره، فقال لحاجبه: ما يشاء أحد أن يصل إليّ إلا وصل! حتى الصبيان؟! فعلم درواس أنه يريده، فقال: يا أمير المؤمنين، إن دخولي لم يخلّ بك شيئًا، ولقد شرفني، وإن هؤلاء القوم قدموا لأمر أحجموا دونه، وإن الكلام نشر والسكوت طيّ ولا يعرف الكلام إلاّ بنشره. فقال له هشام: انشر لا أبالك! وأعجبه كلامه. فقال أصابتنا سنون ثلاث، فسنة أذابت الشحم وسنة أكلت اللحم وسنة أنفقت العظم، وفي أيديكم فضول أموال: إن كانت لله ففرقوها على عباده المستحقين لها، وإن كانت لهم فعلام تحبسونها عنهم؟ وإن كانت لكم فتصدقوا بها عليهم، فإن الله يجزي المتصدقين، ولا يضيع أجر المحسنين، واعلم يا أمير المؤمنين أن الوالي من الرعية كالروح من الجسد لا

www.mtenback.com

حياة للجسد إلا به. فقال هشام: ما ترك الغلام في واحدة من الثلاث عذراً. وأمر أن يقسم في باديته مائة ألف درهم وأمر لدرواس بمائة ألف درهم. فقال يا أمير المؤمنين، اردها إلى جائزة العرب فإني أكره أن يعجز ما أمر لهم به أمير المؤمنين عن كفايتهم. قال: فما لك من حاجة تذكرها لنفسك؟ قال: مالي من حاجة دون عامة المسلمين[٩١].

وبمثل هذا العقل يتقدم الصغير، وبمثل هذه الفصاحة تبلغ الغايات. وفي التراث أمثلة كثيرة على ذلك. ذكر ابن عبد ربه أن المأمون دخل بيت الديوان فرأى غلاماً جميلاً على أذنه قلم فقال له: من أنت يا غلام؟ قال: أنا الناشئ في دولتك والمتقلب في نعمتك والمؤمل لخدمتك الحسن بن رجاء. قال المأمون: بالإحسان في البديهة تفاضلت العقول، ارفعوا هذا الغلام فوق مرتبته[٩٢]. فنال ما نال بفصاحته وحسن بديهته.

وكان حسن الإفهام والفصاحة والبيان هي المؤهلات لدى فضلاء الأمة في اختيار الوزراء والكتاب والسفراء. قال سعيد بن مسلم بن قتيبة للمأمون: لو لم أشكر الله إلا حسن ما أبلاني في أمير المؤمنين من قصده إلي بحديثه وإشارته إليَّ بطرفه لكان ذلك من أعظم ما توجبه النعمة وتفرضه الصنيعة. قال المأمون: ذلك والله لأن الأمير يجد عندك من حسن الإفهام إذا حَدَّثْتَ وحسن الفهم إذا حُدِّثْتَ ما لا يجده عند غيرك[٩٣].

وربما أفحم البليغ بكلمة واحدة، قال الجاحظ: خرج عثمان بن عفّان رحمه الله يومًا من داره وقد جاء عامر بن عبدقيس فقعد في دهليزه. فلما خرج رأى شيخًا دميمًا أشغى[٩٤] أثط في عباءة فأنكره وأنكر مكانه، فقال: يا أعرابي، أين ربك؟ فقال: بالمرصاد. ويقال إن عثمان رضي الله عنه لم يفحمه أحد قط غير عامر هذا[٩٥].

---

(٩١) ابن منقذ: لباب الآداب، ٣٥٢.

(٩٢) ابن عبد ربه: العقد الفريد ١٣١/٢.

(٩٣) المصدر السابق، ١٣٢/٢

(٩٤) الشغى: تراكب الأسنان واختلافها، والثط هو الصغير اللحية

(٩٥) الجاحظ: البيان والتبيين، ٢٣٦/١.

www.mtenback.com

فهي كلمة واحدة ولكنها كلمة من وعى السؤال وما دفع إليه وما صحبه من ملابسات فأجاب تلك الإجابة الدامغة التي كأنما أعدت وهيئت. ومثل هذه الردود الشافية تذهل حتى أهل الفصاحة فيتساءلون عنها أهي معدة سلفًا أم أنه نبع العقول الصحيحة والقرائح الصافية. وقد وقع للحجاج شيء من ذلك وهو من هو في الفصاحة ومع ذلك كان كثير الإعجاب بالكلام الفصيح، قال ابن منقذ: " لما هزم المهلب بن أبي صفرة عبد ربه الحروري قال هل من رجل حازم أبعث به إلى الحجاج مع رؤوس هؤلاء القوم؟ فدل على بشير بن مالك الخرشي، فوجهه إلى الحجاج فلما دخل عليه قال له الحجاج: ما اسمك؟ قال: بشير بن مالك. فقال الحجاج: ملك وبشارة. كيف تركت المهلب؟ قال: تركته - أصلح الله الأمير - قد أدرك ما طلب وأمن ما خاف. قال: الحمد لله على ذلك، فكيف تركت العدو؟ قال: كانت له الدولة ولنا العاقبة. فقال الحجاج: العاقبة للمتقين. فكيف تركت الجند؟ قال: أرضاهم الحق وأغناهم النَّفَل وإنه مع ذلك ليسوسهم سياسة الملوك ويقاتل عنهم قتال الصعلوك. قال: فكيف أبناء المهلب؟ قال: أعباء البيات حتى يأمنوه وأصحاب السرح حتى يروّحوه. قال: فأيهم أفضل؟ قال: ذاك إلى أبيهم. قال: وأنت فقل، فإني أراك عاقلاً. قال: هم كالحلقة المفرغة لا يدرى أين طرفاها. فقال الحجاج: أكنت أعددت ما سمعت؟ قال: لا يعلم الغيب إلا الله. فالتفت الحجاج إلى جلسائه فقال: هذا والله الكلام الخالص، لا الكلام المصنوع[٩٦].

وما عرفت العرب وسيلة وشافعًا كالفصاحة حتى إنها لترفع الضيم وتردُّ بها الحقوق إلى أصحابها. فقد دخل أعرابي على هشام بن عبدالملك يشكو عاملاً لهم فقال: يا أمير المؤمنين، إنه والله ما أدركنا أحدًا قعد مقعدك أعدل منك، وإن أهل

---

[٩٦] ابن منقذ: لباب الآداب ٣٣٨.

www.mtenback.com

الشكر لعدلك هم عيونك على مكارمك، يجب عليهم أن يرفعوا إليك كل مكرمة غبت عنها، حفظًا لغيبك، وتأدية لحقك وحق أمامتك، وفلان بن فلان رفعت خسيسته وأثبت ركنه وأعليت ذكره، وأمرته بنشر محاسنك فطواها، وإظهار مكارمك فأخفاها، وقد أخرب البلاد، وأظهر الفساد وأجاع الأكباد، وأخرج الناس من سعة العدل إلى ضيق الجور حتى باعوا الطارف والتليد - قال يا أعرابي، إن كان ما تقوله حقًا عزلناه وجعلناه نكالاً لمن يسير بسيره[٩٧].

فما قصر لسان الأعرابي في رفع المظلمة وقد وعاها الحاكم وأثرت فيه تأثيرًا لولا العدل والأناة لخيل للقارئ أنه يعزله من فوره ويجعله نكالاً لغيره.

وقد عبر الشعراء عن أثر اللسان، وأبانوا أنه يرفع ويضع ولذلك تهيب الناس ألسنة الشعراء الفصحاء، قال بعض المولدين:

وللشُّعَرَاءِ أَلْسِنَةٌ حِدَادٌ ... عَلَى العَوْرَاتِ مُوفِيَةٌ دَلِيْلَهْ

ومِنْ عَقْلِ الكريمِ إذَا اتَّقَاهُمْ ... ودَارَاهُمْ مُدَاراةً جَمِيلَهْ

إذا وَضَعُوا مكَاوِيهِم عَلَيْهِ ... وإنْ كَذَبُوا، فَلَيْسَ لَهُنَّ حِيْلَهْ

وقال الأسدي[٩٨]:

وأَصْبَحْتُ أَعْدَدْتُ لِلنَّائِبَاتِ ... عِرْضًا بَرِيئًا وَعَضْبًا صَقِيلاَ

وَوَقْعَ لِسَانٍ كَحَدِّ السِّنَانِ ... وَرُمْحًا طَوِيلَ القَنَاةِ عَسُولاَ

والحق أن العاقل ينبغي أن يتقي لسان الشعراء لأنهم إن لم يجدوا فيمن يحنقون عليه مطعنًا فربما طعنوا فيه بالباطل، فإذا مضى كلامهم فيه صعب ردّه. لذلك كان

---

[٩٧] ابن منقذ: لباب الآداب ٣٣٧.

[٩٨] الجاحظ: البيان والتبيين، ١/١٥٩؛ العمدة: ١/٧٨.

www.mtenback.com

المعروفون منهم بالهجاء من أكثر طبقات الشعراء مهابة. قال الجاحظ لما شاع هجاء الحكم بن عبدل الأسدي.. هابه أهل الكوفة واتقى لسانه الكبير والصغير، وكان الحكم أعرج لا تفارقه عصاه، فترك الوقوف بأبوابهم وصار يكتب على عصاه حاجته ويبعث بها مع رسوله فلا يحبس له رسول ولا يؤخر عنه لقراءة الكتاب، ثم تأتيه الحاجة على أكثر مما قدّر وأوفر مما أمّل، فقال يحيى بن نوفل[٩٩]:

عَصَا حَكَمٍ فِي الدَّارِ أَوَّلُ دَاخِلٍ وَنَحْنُ عَنِ الأَبْوَابِ نُقْصَى وَنُحْجَبُ

وهذا أثر من آثار اللسان السيئة، ولكنه على كل حال يوقفك على أن اللسان مرهوب الجانب.

وللسان تأثير بالغ في الخروج من المآزق وتفادي العقوبة والحرج، لأن الفصيح يذهب بالكلام مذاهب السلامة، لذلك قالوا: إن في المعاريض لمندوحة عن الكذب؛ قال المدائني: أُتي العريان بن الهيثم بغلام سكران، فقال له: من أنت، فقال:

أَنَا ابْنُ الذي لاَ تَنْزِلُ الدَّهْرَ قِدْرُهُ وَإِنْ نَزَلَتْ يَوْمًا فَسَوْفَ تَعُودُ

تَرَى النَّاسَ أَفْوَاجًا إِلى ضَوْءِ نَارِهِ فَمِنْهُمْ قِيَامٌ حَوْلَهَا وَقُعُودُ

فظنه ولدًا لبعض الأشراف فأمر بتخليته، فلما كشف عنه قيل له إنه ابن باقلاني[١٠٠]. فهذا من تزييف الكلام ولكنه احتاج فاستعمل المعاريض والكناية فأنقذته فصاحته.

وقد رأينا آثار الفصاحة في الجدّ، ولكن لها في الدعابة والهزل أثرًا أيضًا، قالوا دخل أبو بكر الهجري على المنصور فقال: يا أمير المؤمنين نغص فمي وأنتم أهل بيت البركة فلو أذنت فقبلت رأسك لعلّ الله يمسك عليّ من أسناني؛ قال: اختر بينها وبين

---

[٩٩] الجاحظ: البيان والتبيين ٣/٧٤.

[١٠٠] ابن عبد ربه: العقد الفريد ٢/٤٦٦.

www.mtenback.com

الجائزة، فقال: يا أمير المؤمنين أيسر عليّ من ذهاب الجائزة ألا تبقى في فمي حاكة. فضحك المنصور وأمر له بجائزة[١٠١].

ولكن اللسان الفصيح له قدرة لا تبارى في تقبيح الحسن وتحسين القبيح، قالوا: عاتب عبد الملك بن صالح يحيى بن خالد على شيء فقال له يحيى: أعيذك بالله أن تركب مطية الحقد! فقال عبدالملك: إن كان الحقد عندك بقاء الخير والشر لأهلهما إنهما لباقيان. فلما ولّى قال يحيى: هذا رجل قريش احتجّ للحقد حتى حسنه لي فأذهب سماجته من عيني[١٠٢].

ويبقى خطر الفصاحة الأكبر عندما تستغل لقلب الأمور على أعقابها بطمس الحقائق وتزوير الواقع وجعل المدح ذمًا والذم مدحًا وذلك أمر يأباه الدين والمروءة وقد نهينا عن ذلك وتوعّد الرسول ﷺ فاعله بالنّار، فقد جاء في الحديث: «لعلّ بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض فأقضي له، فمن قضيت له بشيء من ذلك فإنما أقطع له قطعة من النار. وكان ﷺ يقول: «ما أعطي الرجل شرًا من طلاقة اللسان» وهذا قطعًا مقصود به طلاقة اللسان في الباطل. وقد أحست العرب بقيمة هذا الشيء وعرفوا أن بعضهم قد يصل به لسانه إلى تزييف الحقائق، فقد سئل العتابي عن البلاغة فقال: إظهار ما غمض من الحق، وتصوير الحق في صورة الباطل والباطل في صورة الحق. قال ابن منقذ: روي أن حامد بن العباس سأل عليّ بن عيسى الوزير في ديوان وزارته عن دواء الخُمار وقد علق به! فأعرض عن كلامه، وقال: وما أنا وهذه المسألة! فخجل حامد، ثم التفت إلى قاضي القضاة أبي عمر فسأله عن ذلك، فتنحنح القاضي لإصلاح صوته، ثم قال: قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ

---

[١٠١] ابن عبد ربه: العقد الفريد، ٢

[١٠٢] العسكري: الصون ٢٠٩.

www.mtenback.com

عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾[١٠٣]؛ وقال رسول الله ﷺ: «استعينوا على كل صنعة بصالح أهلها» والأعشى هو المشهور بهذه الصناعة في الجاهلية، وقد قال:

وَكَأسٍ شَرِبْتُ عَلَى لَذَّةٍ وأُخْرَى تَدَاوَيْتُ مِنْهَا بِهَا

وقد تلاه أبو نواس، وهو القائل:

دَعْ عَنْكَ لَومِي فإنَّ اللَّوْمَ إغراءُ وَدَاوِني بالَّتي كَانَتْ هِيَ الدَّاءُ

فأسفر حينئذٍ وجه حامد، وقال لعليّ بن عيسى: يا بارد، ما ضرك أن تجيب بما أجاب به قاضي القضاة، وقد استظهر في جواب المسألة بقول الله تعالى، ثم بقول الرسول ﷺ وبيّن الفتيا وأدى المعنى وتنصّل من العهدة. فكان خجل عليّ بن عيسى من حامد بن العباس بهذا الكلام أكثر من خجل حامد منه لما ابتدأه بالمسألة[١٠٤].

فهذا الجواب وإن أرضى السائل وأبان عن حصافة القاضي ولباقته في حسن التخلّص من الحرج، إلاّ أنه لم يخرج من تزيين الباطل، وجواب المسألة معروف.

هذا وقد أعطت العرب الفصيح الناطق أسماء عديدة حسب حالة لسانه من الفصاحة، وهم يدركون أن اللسان هو الناطق بما في ضمير الإنسان، لذلك جعلوا جمال المرء في فصاحته ولسانه لا في زيه وخلقته، وقد نطق الأثر بذلك، قال العباس بن عبد المطلب للنبي ﷺ: يا رسول الله، فيم الجمال؟ قال: في اللسان[١٠٥]. لذلك فإن العرب إذا كان الرجل منهم حاد اللسان قادراً على الكلام فهو عندهم (ذرِب اللّسان) و(فتيق اللسان)، فإذا كان جيد اللسان فهو (لسِن)، فإذا كان يضع لسانه حيث أراد فهو (ذَلِيق) فإذا كان مع حدة لسانه بليغًا فهو (مِسْلَاق)، فإذا كان لا تعترض لسانه

---

[١٠٣] سورة الحشر: ٧.

[١٠٤] ابن منقذ: لباب الآداب ٣٣٩.

[١٠٥] الجاحظ: البيان والتبيين ١/١٧٠.

www.mtenback.com

عقدة ولا يتحيّف بيانه عجمة فهو (مِصْقَع)، فإذا كان لسان القوم والمتكلم عنهم فهو (مِدْرَهٌ)[١٠٦]. ولعلّ في تعدد الأسماء أحيانًا دليلاً على عظمة المسمّى. ولكن اللسان عمومًا لم يكن يكتسب عظمته من تعدد ألقابه وصفاته ولكن الأدلة قامت على أنه أداة الفصاحة التي قامت لها سوق لا تبارى عند العرب وذلك لرغبتهم في البيان وحرصهم عليه، وهو عندهم من الرفعة وعلو الشأن والمنزلة بالدرجة التي بيّناها.

القدرة على التعبير ومراعاة المقام:

يحتاج الفصيح حاجة ملحّة إلى القدرة على اختيار التعبير المبين الذي يجلي ما في نفسه ويكشف عنه، ولكنه في الوقت نفسه يحتاج إلى معرفة الوقت الذي يُرَسل فيه ذلك التعبير والمناسبة التي يسوغ فيها والوقت الذي يصلح له؛ لذلك قالوا: لكل مقام مقال. وكل كلام له موضع لا يوضع في غيره ولا يحسن إلاّ فيه. والبليغ هو الذي جمع مع الفصاحة بصراً بمواضع الكلام وأوقاته وأوضاع المخاطبين وأحوالهم؛ لذلك قالوا: «جماع البلاغة البصر بالحجة والمعرفة بمواضع الفرصة». وقال آخر: البلاغة وضوح الدلالة وانتهاز الفرصة وحسن الإشارة. ثم قال: ومن البصر بالحجة والمعرفة بمواضع الفرصة أن تدع الإفصاح بها للكناية عنها، إذا كان الإفصاح أوعر طريقة، وربما كان الإضراب عنها صفحاً أبلغ في الدرك وأحقّ بالظفر[١٠٧].

وهذه الدرجات من البصر بأحوال الكلام تحتاج إلى فصيح متمكّن، طيّع العبارة جيد البديهة يصدر عن طبع، فإن الحفظ وإعداد الكلام المسبق لا يفيد في بعض المواطن؛ فربما شرع المتحدث في كلام ثم عرض له ما يمنعه من الاستمرار فيه لما لحظه على وجوه المستمعين أو بعضهم، فهو هنا محتاج إلى الذكاء في حسن التلخص والتأني لربط ما مضى من كلامه بما سيلحق به.

---

[١٠٦] الثعالبي، أبو منصور عبدالملك بن محمد: فقه اللغة وأسرار العربية، القاهرة، مطبعة الاستقامة، ص٢٥.

[١٠٧] الجاحظ: البيان والتبيين، ج١، ص٨٨.

www.mtenback.com

والمتحدث اللبق هو الذي ينتهز الفرصة فيلمح في عيون سامعيه رغبتهم في المُضيّ فيما هو فيه أو التوقف عنه، لذلك كان ابن مسعود يقول: حدّث الناس ما حدجوك بأبصارهم وأذنوا لك بأسماعهم فإذا رأيت منهم فترة فأمسك. وكان مطرّف بن عبد الله يقول: لا تطعم طعامك من لا يشتهيه. وقال بعض الحكماء: «من لم ينشط لكلامك فارفع عنه مؤونة الاستماع منك»[١٠٨]. وليس في الدنيا أبرد من متحدث يرى الملال والسأم في وجه كل من يستمع إليه ثم يمضي في حديثه لا يلوي على شيء، فيكون بذلك قد ألقى ألفاظه ودفع معانيه إلى نفوس لا تتجاوب معه وقد تتعدى ذلك إلى البغض.

وقد تبيّن فيما تقدم أن الإطالة من غير هدف هي عيب من عيوب الكلام. والمتحدث اللبق والخطيب المدرك يحيط بأحوال مخاطبيه فيطيل حيث يكون الطول مطلوبًا ويوجز في غير ذلك كمّا قال الآخر:

يَرْمُونَ بِالخُطَبِ الطِّوالِ وَتَارةً وَحْيَ المَلاَحِظِ خِيفَةَ الرُّقَبَاءِ

ونحن في زماننا هذا أحوج ما نكون إلى أسلوب الخطاب الذي يوافق مقتضى الحال، ونعني بذلك الأسلوب العلمي؛ وهو أهدأ الأساليب بما يحمله في طياته من حقائق بغيه إيصالها للناس كاملة مقنعة، فيحتاج المتحدث أو الكاتب إلى المنطق السليم والفكر المستقيم، بعيدًا عن الخيال الشعري؛ لأنه يخاطب العقول وليس العواطف. وهو يشرح حقائق لا تخلو من الغموض والالتباس والتداخل وتحتاج إلى أسلوب يتميز بالقوة والجمال وسطوع البيان ورصانة الحجج وحسن تقريب المعنى في الأذهان من أقرب وجوه الكلام. فيجب أن تكون ألفاظه واضحة صريحة في معناها خالية من الاشتراك لا تثير ظنًّا ولا تقبل تأويلاً أو تفرعًا، مؤلفة في سهولة وجلاء بعيدة عن المجاز والمحسنات البديعية إلا ما يجيء عفو الخاطر.

---

[١٠٨] الجاحظ: البيان والتبيين، ج١، ص١٠٤-١٠٥.

www.mtenback.com

أما الأسلوب الأدبي فلا غبار على اشتماله على الخيال الرائع والتصوير الدقيق وإلباس المعنوي ثوب المحسوس وإظهار المحسوس في صورة المعنوي. بشرط اجتناب التكلف والبعد عن تعمّد الصنعة. وهو أسلوب يمتاز باستعمال المترادفات وضرب الأمثال واختيار الألفاظ الجزلة ذات الرنين، ويحسن فيه أن تتعاقب ضروب التعبير من إخبار واستفهام وتعجب وإنكار وغيره. فكلما احلولى الكلام وعذب وراق وسهلت مخارجه ولانت حواشيه كان أسهل وأسرع ولوجًا في الأسماع وأشد اتصالاً بالقلوب وأخف على الأفواه، لاسيما إذا كان مشتملاً على معنى شريف ومترجمًا بلفظ مونق ومعايرًا بكلام عذب بعيد عن التكلف والتعقيد، جامعًا بين فصاحة المتقدمين وافتنان المتأخرين.

وإذا تجاوزنا أسلوب الخطاب إلى محتواه فالمتحدث والكاتب مطالبان بمراعاة أوضاع المخاطبين وأحوالهم، ومن ذلك التمهيد للحديث، فلا يليق بالمتحدث أن يهجم على غرضه هجومًا من غير تقديم فيفجأ المتلقي، فإن النفوس محتاجة إلى التهيئة وذلك شيء مهم في جليل الأمور ودقيقها، وقد كان ذلك ديدن أهل الرأي والفصاحة، وقد مرّ بنا قول عمر رضي الله عنه إن خير ما أوتيته العرب الأبيات يقدمها الرجل بين يدي حاجته...[١٠٩] فإذا شرع المتحدث بعد ذلك في صلب موضوعه ودلف إلى لبّ قضيته انتقى ألفاظه انتقاءً فلا يجعل اللفظة قلقة في موضعها نافرة عن مكانها، فإنه متى فعل ذلك هجّن الموضع وهو يحاول تحسينه وأفسد المكان وهو يريد إصلاحه، فإن وضع الألفاظ في غير مواضعها قبيح كترقيع الثوب الذي لا تتشابه رقاعه. ولابد أن يتنبه إلى أن للملوك وأشباههم ألفاظًا ولعامة الناس ألفاظًا أخرى فلا يخاطب الملوك بخطاب العامة ولا يخاطب السوقة بخطاب الملوك، وذلك هو أدب العرب في مخاطباتها طالت أو قصرت في المحافل أو في الأوضاع المخصوصة.

---

[١٠٩] الجاحظ: البيان والتبيين ٢/ ٣٢٠.

www.mtenback.com

قال الشيباني: إذا احتجت إلى مخاطبة الملوك والوزراء والعلماء والكتّاب والخطباء والأدباء والشعراء وأوساط الناس وسوقتهم فخاطب كلاً على قدر أبهته وجلالته وعلوه وارتفاعه وفطنته وانتباهه. فمعرفة أقدار الناس دليل على عقل اللبيب، روي عن علي رضي الله عنه قوله: أنزلوا الناس منازلهم[١١٠].

وقال يحيى بن خالد: مساءلة الملوك عن حالها من تحية النّوكى، فإذا أردت أن تقول: كيف أصبح الأمير، فقل صبّح الله الأمير بالنعمة والكرامة، وإن كان عليلاً فأردت أن تسأله عن حاله فقل: أنزل الله على الأمير الشفاء والرحمة[١١١].

وقال الرشيد مرة للأصمعي في أول عهده بمجالسة الملوك: من أم فُلان لإنسان من العرب؟ فقال الأصمعي: على الخبير سقطت يا أمير المؤمنين. فقال وزيره الفضل: أسقط الله أنفك وعينك، أهكذا تخاطب الخلفاء؟[١١٢] وهكذا كانوا لا يستجيزون الاستعزاز أمام الكبراء ويستسمجون الفخر بحضرتهم. وهذا من المواضع التي ينبغي للمتحدث المدرك تعهدها والعلم بما يليق فيها وما لا يليق.

وهذا الأدب على قلة ألفاظه دالٌّ على سلامة طبع من يصدر عنه، وهي أمور على دقتها وصغرها فإنها مؤشرات إلى أمور يعظمونها ويجعلونها دليلاً على العقول فيميزون بها نابه الذهن من خامله. قال أبو عبدالله بن خالويه حين دخل على سيف الدولة الحمداني أول مرة: فلما مثلت بين يديه، قال لي: اقعد، ولم يقل اجلس. فتبيّنت بذلك اعتلاقه بأهداب الأدب واطلاعه على أسرار كلام العرب؛ وإنما قال ابن خالويه هذا لأن المختار عند أهل الأدب أن يقال للقائم اقعد وللنائم أو الساجد اجلس، لأن

---

[١١٠] ابن عبد ربه: العقد الفريد، ج٤، ص١٨٠.

[١١١] المرجع السابق، ٤٦/١.

[١١٢] الجهشياري، أبو عبدالله محمد بن عبدوس: الوزراء والكتّاب، القاهرة، (١٩٣٨م)، ص ١٨٩.

www.mtenback.com

القعود انتقال من العلو إلى السفل؛ ومنه رجل مقعد. والجلوس هو الانتقال من السفل إلى العلوّ ولهذا قيل انجد جَلْسَاء لارتفاعها[١١٣].

وقوم يلحظون هذه الفروق الدقيقة والمعاني اللطيفة هم أحرى وأخلق أن تكون الفصاحة سمة من سماتهم والنباهة لازمة من لوازمهم.

أما الكتابة التي هي شق الفصاحة وقسيمها فمراعاة هذه الأمور فيها واجبة، وذلك بوضع الألفاظ في مواضعها حتى لا تضطرب المعاني ويفسد سياق الكلام، فلا يحمد الله مثلاً، في المواضع التي يسترجع فيها، قال بعضهم: «فإن قال كذا فقد خرج عن الملّة والحمد لله!» قال ابن عبد ربه: فنقض عليه وقيل له: تحمد الله على أن تخرج امرأً مسلمًا من الإسلام، وهذا موضع استرجاع، وللحمد مكان يليق به، وإنما يقال في المصيبة إنا لله وإنا إليه راجعون[١١٤].

وأما الشعر فهو مضمار الفصاحة الواسع، وأول ما يحتاج إليه الشاعر – بعد الجد الذي هو الغاية – حسن التأتي والسياسة وعلم مقاصد القول، فإن نسب ذلّ وخضع وإن مدح أطرى وأسمع وإن هجا أخلّ وأوجع، وإن فخر خبّ ووضع، وإن عاتب خفض ورفع، وإن استعطف حنّ ورجع، ولكن غايته معرفة أغراض المخاطب كائنًا من كان ليدخل إليه من بابه... وقد قيل لكل مقام مقال، وشعر الشاعر لنفسه وفي مراده... غير شعره في قصائد الحفل التي يقوم بها بين السماطين... وشعره للأمير والقائد غير شعره للوزير والكاتب، ومخاطبته للقضاة والفقهاء بخلاف ما تقدم من هذه الأنواع[١١٥].

---

[١١٣] وفيات الأعيان، لابن خلكان، عن ابن خالويه وجهوده في اللغة لمحمود جاسم، ص ٢٣.

[١١٤] ابن عبد ربه: العقد الفريد ٤/١٨٠.

[١١٥] القيرواني: العمدة ١/١٩٩.

www.mtenback.com

وقد روت كتب الأدب كثيرًا من الشواهد مما لم يوفّق فيه القائل نثرًا أو شعرًا لعدم مراعاته مقام المخاطب. فقد دخل أبو النجم على هشام بن عبد الملك يمدحه فقال عن الشمس:

صَفْرَاءُ قَدْ كَادَتْ ولَمَّا تَفْعَلِ كَأَنَّهَا في الأُفْقِ عَيْنُ الأَحْوَلِ

وكان هشام أحول، فأمر به فحبس[١١٦]. وهذا ليس موضع تعمّد، ولو تعهده الشاعر وتفطّن له ما كان وقع فيما وقع منه.

ولما أنشد جرير عبدالملك:

هذا ابنُ عَمِّي في دمشقَ خَلِيفةٌ لَوْ شِئْتُ سَاقَكُمُ إليَّ قَطِينَا

قال: مازاد ابن المراغة على أن جعلني شرطيًا. عنده وكان الوجه أن يقول «لو شاء». ولما أنشده:

أَتَصْحُو أمْ فُؤَادُكَ غَيْرُ صَاحِ عَشِيَّةَ هَمَّ صَحْبُكَ بِالرَّوَاحِ

قال له: بل فؤادك يا ابن الفاعلة[١١٧]. وكان عبد الملك بصيرًا بالشعر وأساليبه. وقد أخذ الشراح على المتنبي قوله في مدح كافور:

وَمَاطَرَبي لَمَّا رَأَيْتُكَ بَدْعَةً لَقَدْ كُنْتُ أَرْجُو أَنْ أَرَاكَ فَأَطْرَبُ

وقالوا: ما زاد على أن جعله قردًا أو شيئًا من المضحكات، وكان المتنبي يذهب في شعره مذهب التعريض.

وهذا باب في الشعر أطول من أن يستقصى وكله دال على عنايتهم بالخطاب ورعايتهم للمقام واهتمامهم بمقتضى الحال. وهو أمر به تتم فصاحة اللسان وبه يتوصّل إلى صحة البيان.

---

[١١٦] ابن عبد ربه: العقد الفريد، ج٣، ص٧، ج١، ص٣٠٨.

[١١٧] القيرواني: العمدة، ج١، ص٢٢٢.

www.mtenback.com

اكتساب الفصاحة:

الفصاحة فرع البلاغة التي هي ملكة التعبير عن المقصود بلفظ فصيح، وهي صفة مكتسبة تنمو بالتعلّم وتقوى وتشتد بالدربة والمران. وطالب الفصاحة يسمع أساليب الفصحاء في مخاطباتهم ويقف على كيفية تعبيرهم عن المعاني فيتحفّظ أقوالهم ويرددها ويقلدها وينسج على منوالها حتى يستوي عوده ويرسخ ذلك ويصير صفة وطبعًا فيه.

وكانت العرب قبيلين؛ قوم نشأوا في البوادي لم يغادروها، لسانهم لسان العرب وطباعهم طباعهم، وقوم نزلوا القرى والحواضر وخالطوا من بها ففارقوا سليقة الأعراب وفطرتهم وفسدت ألسنتهم. أما القسم الأول فستظل لغة قومه هي لغته ينشأ عليها ويتلقنها ويلقفها ممن حوله بالمحاكاة فيشب على ما هم عليه ثم إذا كانت لديه رغبة واستعداد لتحفّظ شوارد كلام قومه ومروياتهم فذلك الفصيح المبرز فيهم.

ومشاهير الفصحاء ضربان؛ الأول مطبوع يقول الكلام لساعته وهذا وأمثاله لابد أن يكونوا أخذوا أنفسهم بالحفظ المستفيض والتدريب المستمر حتى انقاد لهم عنان الفصاحة، فأصبحت طبعًا. وأما القسم الآخر فمكتسب يتصنع الأساليب ويحكّك الكلام ويعده في صدره حتى تجيء ساعة الحديث فيفرغ ما في صدره، وكلا القسمين يكون قد أخذ نفسه بطريقة في الحفظ والاسترجاع. روى أبو أحمد العسكري أن عبدالملك بن صالح كان فصيحًا بليغًا، وكان من خاصة هارون الرشيد وأعوانه، فقيل للرشيد إن عبد الملك يعدُّ كلامه ويفكر فيه فلذلك بانت بلاغته، فأنكر الرشيد ذلك وقال بل هو طبع فيه. ثم أمسك حتى جلس يومًا ودخل عبدالملك، فقال للفضل ابن الربيع: إذا قرب من سريري فقل له: ولد لأمير المؤمنين هذه الليلة ابن ومات ابن. ففعل الفضل ذلك. قال فدنا عبدالملك فقال: يا أمير المؤمنين، سرّك الله فيما ساءك، ولا ساءك فيما سرّك، وجعلها واحدة بواحدة ثواب الشاكر وأجر الصابر. فلما خرج قال

www.mtenback.com

الرشيد: هذا الذي زعموا أنه يتصنع الكلام! ما رأى الناس أطبع من عبد الملك في الفصاحة[١١٨].

وفي هذا الخبر دليل على أن الفصاحة تكون طبعًا و تكون تكلفًا، ولكن في الخبر جانبًا آخر لا يخفى وهو حرص الخلفاء والسلف على الفصاحة وجعلها معيارًا يقدمون به من يقدمون ويؤخرون من يؤخرون، وفيه حافز للنشء على تعلّم الفصاحة لأنها زينة للمتحلي بها، وهي وسيلة تنال بها الدرجات والمناصب.

أما القسم الآخر من الفصحاء فلن يصلح حالهم إلا تعلّم اللغة بحفظ ألفاظها وتراكيبها ومداومة الاستعمال لأن اللغة معايشة. وكذلك تكون الفصاحة فإنها ملكة يمكن اكتسابها بالدربة وكثرة الرواية وسعة الحفظ ودوام المران. يقول ابن خلدون: «اعلم أن ملكة اللسان المضري لهذا العهد قد ذهبت وفسدت، إلا أن اللغات لما كانت ملكات كان تعلمها ممكنًا شأن سائر الملكات. ووجه التعليم لمن يبتغي هذه الملكة ويروم تحصيلها أن يأخذ نفسه بحفظ كلامهم القديم الجاري على أساليبهم من القرآن والحديث وكلام السلف، ومخاطبات فحول العرب في أسجاعهم وأشعارهم، وكلمات المولدين أيضًا في سائر فنونهم حتى يتنزّل لكثرة حفظه لكلامهم من المنظوم والمنثور منزلة من نشأ بينهم ولقّن العبارة عن المقاصد منهم، ثم يتصرف بعد ذلك في التعبير عما في ضميره على حسب عباراتهم وتأليف كلماتهم، وما وعاه وحفظه من أساليبهم وترتيب ألفاظهم، فتحصل له هذه الملكة بهذا الحفظ والاستعمال ويزداد بكثرتها رسوخًا وقوة»[١١٩].

وكلام ابن خلدون يؤكد أنه لم يكن غريبًا أن يعمد أهل الحواضر إلى إرسال أبنائهم إلى البوادي لينشأوا في القبائل العريقة في الفصاحة والتي لم يتطرق إليها اللحن

---

[١١٨] العسكري: المصون، ص٢٠٨.

[١١٩] ابن خلدون: المقدمة، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ص٥٥٨.

www.mtenback.com

ولم تفسد سلائقها بمخالطة الأعاجم. قد نشأ الرسول ﷺ في بني سعد ابن بكر وكان يفخر بذلك ويقول: أنا أفصح العرب بيد أني من قريش ونشأت في بني سعد[١٢٠].

وكان الجلة من العلماء قبل أن يدركوا ربما أطالوا النجعة إلى مضارب الأعراب ومواطن الفصاحة يسمعون ويجمعون ويروون. ولذلك قال عبدالملك في الوليد ابنه - وكان لحانًا - أضرّ بنا في الوليد حبنا له فلم نلزمه البادية[١٢١]. فدلّ ذلك على أنهم كانوا يلزمون النشء العيش في البادية حتى يتفصحوا. ذلك لأن كلام الأعراب أعون شيء على اكتساب الفصاحة. يقول الجاحظ: ليس في الأرض كلام هو أمتع ولا آنق ولا ألذ في الأسماع ولا أشد اتصالاً بالعقول السليمة ولا أفتق للّسان ولا أجود تقويمًا للبيان من طول استماع حديث الأعراب العقلاء والعلماء البلغاء[١٢٢]. ولا يفوتنا أن نلحظ أن الجاحظ هنا قرن مع الأعراب الفصحاء وهم أهل الطبع، العلماء البلغاء وهؤلاء هم الذين اكتسبوا الفصاحة اكتسابًا.

ومن الأدلة على أن الفصاحة فن يمكن تجويده بالاكتساب حديثهم المستفيض عن تدريب اللسان وتحريكه بالمخاطبات الفصيحة حتى لا يطول إسكاته فيغلظ، وكان خالد بن صفوان يقول: لا تكون بليغًا حتى تكلّم أمتك السوداء في الليلة الظلماء في الحاجة المهمة بما تتكلم به في نادي قومك. وهو الذي قيل له: إنّك تكثر، فقال أكثر لضربين؛ أحدهما فيما لا تغني فيه القلة، والآخر لتمرين اللسان فإن حبسه يورث العُقلة. قال ابن عبد ربه: وإنما اللسان عضو إذا مرنته مرن وإذا تركته لكن، كاليد تخشّنها بالممارسة والبدن تقويه برفع الحجر وما أشبهه والرِّجْلِ إذا عُوِّدت المشي مشت[١٢٣].

---

[١٢٠] الحصري: زهر الآداب ١/٢٣.

[١٢١] ابن عبد ربه: العقد الفريد، ٣/٤٨٠.

[١٢٢] الجاحظ: البيان والتبيين ١/١٤٥.

[١٢٣] ابن عبد ربه: العقد الفريد ٢/٢٧٠.

www.mtenback.com

وتراهم من فرط اهتمامهم باللسان كانوا يجعلون له ضرباً من الرياضة في الخلوة حتى لا يحتبس إذا احتاجوا إلى تحريكه في الملأ. وكان ابن المقفع يقول: إذا كثر تقليب اللسان رقت حواشيه ولانت عذبته، يعني طرفه. وقال العتابي: إذا حبس اللسان عن الاستعمال اشتدت عليه مخارج الحروف[١٢٤].

وقال بكر بن عبدالله المزني: «طول الصمت حُبسة»، وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: ترك الحركة غفلة، يعني حركة اللسان، قال الجاحظ: إذا ترك الإنسان القول ماتت خواطره وتبلّدت نفسه وفسد حسّه [١٢٥]. وهم قطعًا لا يدعون إلى إطلاق اللسان في كل شيء خصوصًا هذر القول؛ لأنهم يروون قول الرسول ﷺ «ما أعطي العبد شرًا من طلاقة اللسان». ويعلمون أن المكثار مذموم، وأن مقتل الرجل بين فكيه، ولا يموت الإنسان من عثرة الرِّجل ولكن عثرة اللسان تقضي عليه. ولكن الذي سقناه هنا من حضهم على تحريك اللسان هو في الإعداد والدربة والتهيؤ للساعات التي إن احتاج فيها المرء للسانه طاوعه. فاللسان لا يكون أبدًا، ذاهبًا في طريق البيان متصرفًا في الألفاظ، إلاّ بعد أن تكون المعرفة متخلّلة به منقّلةً له، واضعة له في مواضع حقوقه، وعلى أماكن حظوظه، وهو علّة له في الأماكن العميقة، ومصرفة له في المواضع المختلفة[١٢٦].

وذلك أمر لا يقتصر على الكبار كما مرّ، ولكنهم في النشء أشدّ حرصًا عليه حتى يشبوا على ما يرجونه لهم من إصابة المعاني وجودة اللسان. ذكر أبو عثمان أنهم كانوا يروّون صبيانهم الأرجاز ويعلمونهم المناقلات ويأمرونهم برفع الصوت وتحقيق

---

[١٢٤] ابن عبد ربه: العقد الفريد ٤٧٨/٢.

[١٢٥] الجاحظ: البيان والتبيين ٢٧٢/١

[١٢٦] الجاحظ: الحيوان، تحقيق محمد باسل عيون السود، بيروت، دار الكتب العلمية، (١٩٩٨م) ج١، ص٧٨.

www.mtenback.com

الإعراب؛ لأن ذلك يفتق اللهاة ويفتح الجرم - الحلق - وقال عباية الجعفي: «لولا الدربة وسوء العادة لأمرت فتياننا أن يماري بعضهم بعضًا»[١٢٧].

وهذا أشبه بما كان بعض صالحي المدرسين يوصون به التلاميذ من حفظ الخطب والأشعار وتلاوتها على أهل البيت والأنداد وفي الخلوة حتى تصبح عادة ويحسن الحفظ ويسلس فيكون المتحدث بارعًا في الإلقاء إذا واجه جمهور المستمعين.

وكل هذا ممكن في زماننا هذا، مع ما توافر من وسائل التعليم وإتقان طرقه ومناهجه. فالمدارس والجامعات والمعاهد بجمعياتها الأدبية ومنتدياتها الفكرية هي خير مكان لتدريب الناشئة على الخطاب الفصيح والكلمة البليغة والطريقة المثلى في مخاطبة الناس، فإن كان مع ذلك تعويد الطلاب الحديثَ بالعربية ويكون قدوتهم فيه مدرسهم أصبحت اللغة سهلة سلسة، خفيفة على النفس حبيبة إليها.

وكان خالد بن صفوان يقول لولده: «اكتبوا أحسن ما تسمعون، واحفظوا أحسن ما تكتبون وحدثوا بأحسن ما تحفظون وخذوا من كل شيء طرفًا، فإن من جهل شيئًا عاداه» وإذا كان الفصيح يعد فصاحته للمخاطبة فإن الخطابة رأسها الطبع وعمودها الدربة وجناحاها رواية الكلام وحليها الإعراب وبهاؤها تخير اللفظ. والمحبة مقرونة بقلة الاستكراه كما قال محمد بن منصور الكاتب[١٢٨]. وهذا أمر لا يكون إلا بالتعهّد ولا يتأتّى إلا بطول الممارسة.

وقد مرّ بنا أن كبار العلماء كان بعضهم يأخذ نفسه برياضة الكلام حتى يلين له قاسيه ويسهل عليه عسيره، فهذا واصل بن عطاء أحد أعلام المتكلمين ضرب مثلاً في معاناة رياضة الكلام حتى انقادت له أعنّة الخطابة، يقول عنه الجاحظ: «ولما علم واصل بن عطاء أنه ألثغ فاحش اللثغ وأن مخرج ذلك منه شنيع، وأنه إذ كان داعية

---

[١٢٧] الجاحظ: البيان والتبيين ١/٢٧٢.

[١٢٨] ابن عبد ربه: العقد الفريد ٢/٢٧٤.

www.mtenback.com

مقالة، ورئيس نحلة وأنه يريد الاحتجاج على أرباب النحل وزعماء الملل، وأنه لا بد له من مقارعة الأبطال ومن الخطب الطوال وأن البيان يحتاج إلى تمييز وسياسة وإلى ترتيب ورياضة وإلى تمام الآلة وإحكام الصنعة وإلى سهولة المخرج وجهارة المنطق وتكميل الحروف وإقامة الوزن، وأن حاجة المنطق إلى الحلاوة كحاجته إلى الجزالة والفخامة، وأن ذلك من أكثر ما تستمال به القلوب وتثنى به الأعناق وتزيّن به المعاني وعلم واصل أنه ليس معه ما ينوب عن البيان التام واللسان المتمكن والقوة المتصرفة... ومن أجل الحاجة إلى حسن البيان وإعطاء الحروف حقوقها من الفصاحة رام أبو حذيفة إسقاط الرّاء من كلامه وإخراجها من حروف منطقه فلم يزل يكابد ذلك ويغالبه ويناضله ويساجله ويتأتّى لستره والراحة من هجنته حتى انتظم له ما حاول واتسق له ما أمّل[١٢٩].

كل هذه المعاناة التي تقدمت أمر ممكن متى ما عقدت النية وصحّ العزم، وإذا كان ذلك ممكنًا في الكتابة التي هي أدوم وأبقى من المخاطبة باللسان، فإنها في اللسان أيسر فإن القلم أحد اللسانين وهو مع ذلك لا يستقيم عوده ولا يمهر صاحبه إلا بعد طول المعاناة واستمرار التعهّد. ولعل كلمة العماد الأصفهاني خير دليل على الإنسان الذي ينهج نهج التعلّم المستمر، لأن اطلاع الكاتب في زيادة وأحواله في تبدّل، وما يراه صوابًا اليوم قد يحتاج إلى تبديله غدًا لذلك قال: إني رأيت أنه لا يكتب إنسان كتابًا في يومه إلا قال في غده لو غير هذا لكان أحسن، ولو زيد كذا لكان يستحسن ولو قدم هذا لكان أفضل ولو ترك هذا لكان أجمل، وهذا من أعظم العبر وهو دليل على استيلاء النقص على جملة البشر.

وهذه الكلمة التي أصبحت دستورًا للكتاب والمؤلفين هي خير دليل على أن أمور القلم واللسان مما يمكن صقله والرقيّ به عن طريق المراجعة والتمحيص ونقد

---

[١٢٩] الجاحظ: البيان والتبيين ١/١٤-١٥.

www.mtenback.com

الذات، والمخاطب الفصيح أشد حاجة إلى الطلاقة من الكاتب، لأن المتحدث مهما حكك وأعدّ فإن لكلامه ساعة إذا قال ما قال استحال عليه إرجاعه لتقويمه أو إصلاحه؛ أما الكاتب فمعه من المهلة والوقت ما ليس مع الخطيب.

وكل ما تقدم يبرهن على أن الفصاحة مما يمكن اكتسابه وتصييره طبيعة، ولكنه أمر يحتاج إلى طول تعهد وصبر ورغبة. أما في زماننا هذا فليس شيء أنفع للصغار من تنشئتهم على حفظ كتاب الله، وهو المثل الأعلى في الفصاحة والبلاغة، يحذون حذوه ويترسمون خطاه ليتشربوا لغته التي هي قمة الفصاحة بإجماع العلماء. قال ابن خالويه في شرح الفصيح: قد أجمع الناس جميعًا أن اللغة إذا وردت في القرآن فهي أفصح مما في غير القرآن لا خلاف في ذلك[١٣٠]. وستبقى لغة القرآن العربي المبين هي النبراس الذي ينير طريق الفصاحة. وهو الذي حفظ للعربية النموذج الأعلى للفصاحة وهو النموذج الذي أعجز فحول العرب وهم سادة البلاغة وأمراء البيان. وهو الذي أحدث في العربية علومًا لم تكن تعرفها، كانت العناية به هي الدافع الأساسي لوجودها. يضاف إلى ذلك أن القرآن هو الذي حفظ هذه اللغة من الضياع وقواها وجعلها تتفوق على غيرها، وضمن لها الحياة الطيبة والعمر المديد، لأنها باقية ما بقي القرآن، وقد تكفل الله تعالى بحفظه فكانت كفالة حفظ العربية ناتجًا طبيعيًا لتعهّد المولى بحفظ كتابه لكونها وعاء ذلك الكتاب المحفوظ.

ويلي القرآن في الأهمية حديث الرسول ﷺ الذي ملّكه الله تعالى نواصي الفصاحة وآتاه جوامع الكلم، ثم حفظ النصوص الفصيحة التي شهد بفصاحتها السلف والخلف، والاطلاع على دواوين الشعراء الفحول وأمهات كتب الأدب المشهورة،

---

(١٣٠) السيوطي، جلال الدين: المزهر في علوم اللغة، تحقيق: محمد أحمد جاد المولى وآخرين، القاهرة ، دار إحياء الكتب العلمية، ٢١٣/١

www.mtenback.com

يقول ابن خلدون: سمعنا من شيوخنا في مجالس التعليم أن أصول هذا الفن وأركانه أربعة دواوين وهي أدب الكاتب لابن قتيبة، وكتاب الكامل للمبّرد وكتاب البيان والتبيين للجاحظ وكتاب النوادر لأبي علي القالي، وما سوى هذه الأربعة فتبع لها وفروع عنها[١٣١].

وقد وصف الأستاذ محمود محمد شاكر طريقة قراءة هذه الدواوين وأسلوب تذوّقها فقال: ويومئذ طويت نفسي على عزيمة حذاء ماضية أن أبدأ وحيدًا منفردًا رحلة طويلة جدًا، وبعيدة جدًا وشاقة جدًا ومثيرة جدًا. بدأت بإعادة قراءة الشعر العربي كله أو ما وقع تحت يدي منه يومئذ على الأصح، قراءة طويلة الأناة عند كل لفظ ومعنى كأني أقلبها بعقلي وأروزهما بقلبي وأحسهما حسًا ببصري وببصيرتي وكأني أريد أن أتحسسهما بيدي... كأني أطلب خبيئًا قد أخفاه الشاعر الماكر بفنه وبراعته، وأتدسس إلى دفين سقط من الشاعر عفوًا أو سهوًا تحت نظم كلماته ومعانيه دون قصد منه أو تعمّد أو إرادة[١٣٢] وهكذا يكون التعامل مع تلك الدواوين وما فيها من نصوص حتى إذا حفظ منها ما تخيره كان بصيرًا به يعلم من أين أخذه وأين يريد وضعه وكيف يضعه وبهذا يسلم ذوقه وتنمو حصيلته ويعذب لسانه فيعينه على التعبير عمّا في نفسه فيحسن.

ويقول أبو الطيب الوشّاء في صفة طالب الأدب: وأول ما يجب على طالب الأدب مجالسة الرجال ذوي الألباب والنظر في أفانين الآداب وقراءة الكتب والآثار ورواية الأخبار والأشعار وأن يحسن في السؤال ويتثبّت في المقال، ولا يكثر الكلام والخطاب، وإن سئل عمّا يعلمه أجاب وإن لم يسأل صمت للاستماع... وقد روي في

---

[١٣١] ابن خلدون: المقدمة، ٥٥٣.

[١٣٢] شاكر، محمود محمد: المتنبي.

www.mtenback.com

الخبر المأثور عن النبي ﷺ أنه قال: «اغدُ عالمًا أو متعلمًا أو مستمعًا ولا تكن الرابع فتهلك»[١٣٣].

ولابد مع هذه الآداب التي وصفها هؤلاء الفضلاء لمتذوق هذه المصنفات المذكورة وغاشي هذه المجالس المأثورة أن يكون قد تسلّح بمعرفة ما لابد منه من العلوم التي تقيم اللسان وتجنبه الوقوع في اللحن الذي يفسد نظم الكلام فاللحن هجنة والإعراب جمال، وكان عبدالملك بن مروان يقول: اللحن في الكلام أقبح من التفتيق في الثوب والجدري في الوجه. ويقول الزمخشري بعد أن ذكر الأساليب المثلى لتعلم الفصاحة: فمن حصّل هذه الخصائص وكان له حظ من الإعراب الذي هو ميزان أوضاع العربية ومقياسها ومعيار حكمة الواضع وقسطاسها، وأصاب ذروًا من علم المعاني وحظي برش من علم البيان، وكانت له قبل ذلك قريحة صحيحة وسليقة سليمة، فَحُلَ نثره وجزُل شعره و لم يطل عليه أن يناهز المتقدمين[١٣٤].

ثم إن أضاف ناشد البلاغة والفصاحة إلى ذلك معرفة بعلوم القرآن أو شيء منها فإن ذلك من تمام آلة الفصاحة عنده، لأن بين علوم القرآن وعلوم اللغة ترابطًا لا ينفكّ وعقدًا لا ينحلّ، إذ إن علوم العربية ما نشأت إلا حول القرآن وخدمة لعلومه، بل إن العربية ما شرفت ولا ازدانت إلا بالقرآن وعلومه.

يضاف إلى كل ما تقدم تنقية البيئة المحيطة بالمتلقي من الشوائب التي تكدّر صفو تحصيله؛ فإذا كان المتلقي يسمع في دور العلم شيئًا ثم يجد في وسائل الإعلام وما تقع عليه عينه أو ما يقع في أذنه شيئًا غيره فإن ذلك مما يصيب فكره بالبلبلة التي تجعله يسيء الظن إما بنفسه أو بمعلميه أو بلغته نفسها ومن جهل شيئًا عاداه، فيصبح حائرًا لا يعرف إلى أين يتجه وإلى أي فريق ينضم، وربما صرفه ذلك عن لغته جملة واحدة

---

[١٣٣] الوشّاء: الموشّى، ١٤.

[١٣٤] الزمخشري، محمود بن عمر: أساس البلاغة، دار صادر، بيروت، (١٩٧٩م)، ص ٨.

www.mtenback.com

وزهّده فيها، فالضعف اللغوي فاش بين المثقفين، والكتاب يلوكون ألفاظًا جوفاء وعبارات ملتوية والوسائل المرئية والمسموعة مشحونة ركة ومملوءة خطأً. ولعلّ ما ننشده يحتاج إلى زمان طويل وتعاون صادق لإعداد جيل ينهض باللغة فيعيدها إلى سالف عهودها الزاهرة، وما ذلك على الله بعزيز.

خصائص الكلام الفصيح:

يراد بخصائص الكلام الفصيح ما يتصل بألفاظه المفردة من السهولة والعذوبة والسلامة اللغوية، وما يتصل بعباراته المركبة وخلوها من التنافر والضعف والتعقيد ثم ما يتصل بلسان الفصيح وخلوه من عيوب المنطق. ولما كانت للفصاحة تلك المنزلة الرفيعة عند العرب كان لابد من اهتمامهم بها بإبانة السبل التي تكسبهم إياها وتوصلهم إلى درجات الفصحاء حتى ينشّئوا أبناءهم عليها. ومن السهل جدًا أن نستنبط من كلامهم وأن نستخرج من موروثهم وأن نستقرئ من مخاطباتهم أمورًا هي كالمعالم والحدود للفصاحة، وقد وضعت في ذلك كتب ومصنفات للفصاحة بوصفها علمًا من علوم البلاغة وفنًا من الفنون.

فالكلام الفصيح هو ما كان واضح المعنى سهل اللفظ جيد السبك، ولا يتم ذلك للكلام إلا إذا كانت ألفاظه متخيرة لأن الكلام كلما احلولى وعذب وراق وسهلت مخارجه كان أسهل ولوجًا في الأسماع وأشد اتصالاً بالقلوب وأخف على الأفواه كما يقول ابن عبد ربه[١٣٥].

والكلمة الفصيحة هي الكلمة التي يكثر تداولها على ألسنة المتحدثين، وهذه الكلمة لا يكثر استخدامها وتدور على الألسنة إلاّ إذا كانت حسنة عذبة. وعذوبة اللفظ تكمن في خفة الحروف وتباعدها في المخارج، لأن تقارب المخارج أدعى إلى

---

[١٣٥] ابن عبد ربه: العقد الفريد ١٨٧/٤.

www.mtenback.com

اختلاط الكلام وذلك واضح فيما تمثل به أهل البلاغة من لفظة (الهُعخع) وأشباهها لأنها مكونة من حروف متقاربة هي أحرف الحلق، لذلك يصعب نطقها. ومثل هذه اللفظة إذا وقعت في الكلام الفصيح أفسدت نظامه لأن الناطق بها يكون كالذي يهُمّ بالقيء ولا يستطيعه.

وبعض الألفاظ يسبق بعضها بعضًا إلى لسان فصيح أو قلمه لأنها رشيقة بطبيعة تركيبها وتبدو أحلى في السمع من مرادفاتها ولو كثرت. وكل متحدث أو مستمع يسمع كلمة (الديمة) أو (المزنة) يفضلها على كلمة (البعاق) وكلها بمعنى السحاب. وقولك الغصن أو الفنن أخف في السمع من كلمة (العسلوج) والمعنى واحد , وإنما هذه أمور ترسخ بكثرة المعايشة وتصبح طبعًا وذلك بتعهّد المتحدث الفصيح لثروته اللغوية حتى يعتاد اللسان الكلام الحسن ويزداد منه ويجتنب القبيح النابي وينأى عنه.

وكلما كانت الكلمة مأنوسة قريبة المعنى تستطيع فهمها في سياقها دون جهد كان ذلك أدخل في الفصاحة لأن استخدام الغريب المتوحش من غير أهله فيه تكلّف وهو من بعد يثني المتلقي عن التجاوب مع المتحدث فلا يفهم عنه ولا ينسجم معه كما أخذ على بعضهم في قوله:

كَرِيمُ الجِرشَّى شَرِيفُ النَّسَبْ

والجرشّى: النفس، وهي على غرابتها نابية في السمع لا تألفها الأذن، وذلك أمر يدركه الحس حتى في أسماء الأشخاص، فقد عابوا قول جرير بن عطية:

وَتَقُولُ بَوْزَعُ قَدْ دَبَبْتَ عَلَى العَصَا هَلاَّ هَزِئْتِ بِغَيْرِنَا يَا بَوْزَعُ

وذكروا أن الوليد بن عبد الملك قال له: أفسدت شعرك ببوزع[١٣٦]. فهو وإن كان اسمًا عربيًا إلاّ أنهم استثقلوه في النسيب فلم يرقهم كما راقتهم الأسماء الخفيفة الأخرى مثل ليلى ولبنى وسلمى وسعاد ونحوها.

---

[١٣٦] الخفاجي: سر الفصاحة، ص٦٨.

www.mtenback.com

واللفظة عندهم إذا طالت سمجت وثقلت إلا أن تكون مع طولها متباعدة المخارج وقد عابوا على أبي تمام قوله:

فَلأَذْرَبِيْجَانَ اخْتِيَالٌ بَعْدَمَا ... كَانَتْ مُعَرَّسَ عِبْرَةٍ وَنَكَالِ

سَمُجَتْ ونَبَّهَنَا عَلَى اسْتِسْمَاجِهَا ... مَا حَوْلَهَا مِنْ نُضْرَةٍ وَجَمَالِ

فاسم البلدة الموصوفة طويل رديء ولكن للشاعر العذر لأنها غير عربية وإنما العيب في لفظة (استسماجها) فإنها حقًا سمجة وقد أخرجها طولها إلى الرداءة والقبح. ومثله في القبح قول المتنبي:

مِثْلُ القُلُوبِ بِلاَ سُوَيْدَاواتِهَا

فسويداواتها طويلة قبيحة[١٣٧].

ويكرهون تكرار الحرف الواحد في أكثر من موضع على الرغم من أن الكلمة المشتملة عليه إذا جاءت مفردة في السياق تبدو خفيفة سائغة ولكنها مع التكرار تقبح. ذكر المرزباني أن إسحاق الموصلي قال لما غضب عليه المأمون:

يَا سَرْحَةَ الماءِ قَدْ سُدَّتْ مَوَارِدُهُ ... أَمَا إِلَيْكَ طَرِيقٌ غَيْرُ مَسْدُودِ

لِحَائِمٍ حَامَ حَتَّى لاَ حِرَاكَ بِهِ ... مُحَالأً عَنْ طريقِ الماءِ مَحْدُودِ

فلما سمع الأصمعي هذه الأبيات قال له: أحسنت، غير أن هذه الحاءات لو اجتمعت في آية الكرسي لعابتها.[١٣٨] لأن الحاء تكررت ست مرات في ألفاظ البيت العشرة ومن هنا تكون الكراهة.

هذا وربما تبادر إلى أذهان كثير من أهل زماننا أن الفصاحة في الإغراب واستخدام المفردات غير المأنوسة، وهذا وهم محض، وهو اعتقاد قديم، فقد ذكر

---

[١٣٧] الخفاجي: سر الفصاحة، ٨٨.

[١٣٨] المرزباني، أبو عبدالله بن عمران: الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء، القاهرة، (١٩٨٥م)، ص٣٠٠.

www.mtenback.com

الخفاجي شيئًا من هذا وقع له مع بعض معاصريه ممن كانوا يتعمدون الإغراب؛ يقول: وقد رأيت أنا جماعة يتعمدون هذا فقلت لهم: إن سررتم بمعرفتكم وحشي اللغة فيجب أن تغتمّوا بسوء حظكم من البلاغة، وجرى في بعض الأيام ذكر شيخنا أبي العلاء بن سليمان فوصفه واصف من الجماعة بالفصاحة واستدل على ذلك بأن كلامه غير مفهوم لكثير من الأدباء، فعجبنا من دليله، وإن كنا لم نخالفه في المذهب، وقلت له: إن كانت الفصاحة عندك بالألفاظ التي يتعذر فهمها فقد عدلت عن الأصل المقصود أولاً بالفصاحة التي هي البيان والظهور، ووجب عندك أن يكون الأخرس أفصح من المتكلم لأن الفهم من إشاراته بعيد عسير، وأنت تقول كلما كان أغمض وأخفى كان أبلغ وأفصح، وعارضه أبو العلاء صاعد بن عيسى الكاتب وقال: صدقت، إننا لا نفهم عنه كثيرًا مما يقول إلا أنه على قياس قولك يجب أن يكون ميمون الزنجي الذي نعرفه أفصح من أبي العلاء لأنه يقول ما لا نفهمه نحن ولا أبو العلاء أيضًا، فأمسك[١٣٩].

إذن الأمر قديم في توهّم أن الإغراب ضرب من الفصاحة، وهو أمر لا يعقله ذو مسكة، لأن الغريب إن لم يكدّر ذهنك فإنه يصرف كثيرًا من وقتك في البحث عنه حتى ينفتح لك مغلق الألفاظ ومبهم المعاني؛ لذلك كانوا يرون أن أبلغ الكلام وأفصحه ما سابق معناه لفظه.

وقد وقف الجاحظ طويلاً عند استخدام الغريب الحوشي ونفّر من استخدامه ورآه لا يصلح إلا في الأعراب لأنهم يجرون على سلائقهم، وقد مرّ بنا هذا، وقد وافقه الخفاجي إذ يقول: وعلى كل حال فالبدوي صاحب الطبع في هذا الفن أعذر من القروي المتكلف؛ لأن هذا لا يعرف هذه إلا بعد البحث والطلب وتجشّم العناء في التصفح[١٤٠].

---

[١٣٩] الخفاجي: سر الفصاحة ٧١.

[١٤٠] الجاحظ: البيان والتبيين ١٠٧/١، الخفاجي: سر الفصاحة، ٧٣.

www.mtenback.com

وكما كرهوا الألفاظ الغريبة الموحشة الموغلة في البداوة كرهوا أيضًا الألفاظ العامية المبتذلة في النثر والنظم وهما شطرا الفصاحة. ومثلوا لذلك بقول أبي تمام:

جَلَيْتَ وَالمَوْتُ مُبْدٍ حُرَّ صَفْحَتِهِ وَقَدْ تَفَرْعَنَ في أَفْعَالِهِ الأَجَلُ

وتفرعن من عبارات العامة يريدون وصفه بالجبروت.

وعابوا قول ابن نباتة:

أَقَامَ قَوامَ الدِّينِ زَيْغُ قَنَاتِهِ وَأَنْضَجَ كَيَّ الجُرْحِ وَهْوَ فَطِيْرُ

فكلمة (فطير) عامية مبتذلة هجنت الموضع الذي وقعت فيه[١٤١].

فإذا كان هذا القدر غير مسموح به ولا معفو عنه في أيام هؤلاء الفحول وهي قريبة من عصور الفصاحة وسلامة الألسنة فإن ما نراه الآن بين كتابنا أدعى إلى الاستيحاش منه ومن كثير مما جأوا به حتى وصل الحال ببعض ذوي الصفاقة إلى الدعوة إلى استخدام العامية جملة واحدة. وهي دعوة لا تصدر عن ذي تمييز وعقل ومروءة. وهي لعمري إن صلحت لخطاب طائفة من الأميين الذين لا يفهمون سواها تظل قاصرة متقوقعة قابعة في محيط من يستخدمها لا تعدوه إلى غيره، ولا يفهمها غيرهم من سائر الأميين، فلا كفت أهلها وظيفة البيان ولا امتدت إلى غيرهم، وهذا سبيل يؤدي إلى موتها لا رفع الله لها رأسًا.

ويحسن بالفصيح أيضًا أن يتفادى الألفاظ ذات الظلال والدلالات المرغوب عنها، فإن في سعة العربية مندوحة عن استعمال الألفاظ التي تحتمل التأويل وتقبل تفريع المعاني، ونعني بذلك الكلمة التي وضعت لمعنى ثم عبّر بها عن معنى آخر مجازًا وتوسعًا وصار هذا المعنى المجازي الأخير ألصق بها وأصبحت تعرف به. فإنها إن وردت بالمعنى الأول غير مقصود بها معناها المجازي الذي استقر في الأذهان أصبحت قبيحة وهذا مثل قول عروة العبسي:

---

[١٤١] الخفاجي: سر الفصاحة ٨٨.

www.mtenback.com

وَقُلْتُ لِقَومٍ فِي الكَنِيفِ تَرَوَّحُوا عَشِيَّةَ بِتْنَا عِنْدَ مَاوَانَ رُزَّحُ

قال الخفاجي: الكنيف أصله: الساتر، ومنه قيل للترس كنيف، غير أنه قد استعمل في الآبار التي تستر الحدث وشهر بها. فأنا أكرهه في شعر عروة، وإن كان ورد مورداً صحيحاً لموافقة هذا العرف الطارئ. على أن لعروة عذراً وهو جواز أن يكون هذا الاستعمال قد حدث بعده، بل لا أشك في ذلك لأن العرب أهل الوبر لم يكونوا يعرفون هذه الآبار، فهو وإن كان معذوراً غير ملوم فبيته مما يصحّ التمثيل به[142].

فمراعاة تطور الدلالة أمر لازم للفصيح، لأن المتحدث اليوم إذا قال بتُّ في الكنيف كما استخدمها عروة، لم يظن أحد أبداً ما ذهب إليه عروة بل ينصرف الذهن مرة واحدة إلى مكان قضاء الحاجة فيضطرب المعنى. وكثير من ألفاظ اللغة تطورت دلالتها، والمتحدث الفطن هو الذي ينزه أسلوبه من السقوط في مثل هذه الغفلات باستخدام الألفاظ التي استقرت لها معان تخالف أوضاعها اللغوية الأولى، وهذا اكثر من أن يحاط به كما في كلمة الغائط والجُحْر والمكواة وغيرها.

ويتبع لذلك أيضاً تنقية الكلام من الألفاظ الأجنبية التي لم تجر على سنن العربية ولم تنقل إلى أوضاعها، وهذه اللغة ثرة غنية والمتمكن منها بوسعه أن يجد لكل معنى يحاوله لفظاً يقوم به، فإن لم يجده مال إلى أساليب الاشتقاق والنحت والتوليد على مذاهب أهل اللغة، فإن لم يكن بد من الاستعانة بألفاظ غير العربية استخدم المعربات ولكن بشروط وأسس، أما إطلاق العنان للكتاب والمتحدثين بإطلاق اللسان في إقحام ألفاظ أجنبية في الخطاب العربي بلا مسوغ، فأمر يخرج بصاحبه من حدود الفصاحة. وهذه العقدة قديمة أيضاً ذكرها الجاحظ وأشار إلى بعض من يتجمّل بإدخال الألفاظ

(142) الخفاجي: سر الفصاحة ٨٥.

www.mtenback.com

الفارسية في الكلام العربي[١٤٣]. فإن كان لذلك مسوغ وأدخل بأسسه فلا حرج وإلاّ فاطراح ذلك والبعد عنه أدخل في أساليب الفصاحة والفصحاء.

والكلام الفصيح لابد أن يكون موافقًا لمقاييس كلام العرب غير خارج عن عرف العربية ولا قواعدها. أما خروج الكلمة عن عرف اللغة فيدخل فيه مخالفتها لقواعد اللغة والصرف والإعراب. ومثال الخروج من قواعد اللغة وضع اللفظ في غير موضعه كما في بيت البحتري:

يَشُقُّ عَلَيهِ الرِّيحُ كُلَّ عَشِيَّةٍ جُيُوبَ الغَمَامِ بَيْنَ بِكْرٍ وَأَيِّمِ

فوضع الأيم هنا مكان الثيب وليس الأمر كذلك في كلام العرب، وإنما الأيم التي لا زوج لها بكرًا كانت أو ثيّبًا.

ومثال الخروج عن قواعد الصّرف قول البحتري أيضًا:

شَرْطِيَ الإِنْصَافُ إِنْ قِيلَ اشْتَرِطْ وَصَدِيقِي مَنْ إِذَا قَالَ قَسَطْ

أراد بقسط عدل كما يفهم من البيت، والتصريف يوجب أن قسط بمعنى جار وأقسط بمعنى عدل وهذا كلام العرب وعليه قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾[١٤٤] فهذا من قسط، وقوله ﴿وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾[١٤٥] وهذا من أقسط، والمعنى في الآيتين واضح.

ومن شروط الكلام الفصيح أن يجري على سنن الإعراب، فهو حلي الكلام وفقده خلل وهجنة، وكان بعض الفصحاء يقول: أجد للحن غَمَرًا كَغَمر اللحم[١٤٦]،

---

[١٤٣] الجاحظ: البيان والتبيين ١/١٤١.

[١٤٤] سورة الجن: ١٥.

[١٤٥] سورة الحجرات: ٩.

[١٤٦] الزبيدي، أبو بكر محمد بن الحسن: طبقات النحويين واللغويين، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، ص٢٢.

www.mtenback.com

وهو تغير رائحته، وكفى به قبحًا أنهم جعلوا وقوعه في الكلام كالجدري في الوجه وكالتفتيق في الثوب أو كالرقع المختلفة الألوان فيه، وقد وقفنا عنده في بعض المواضع من البحث فكفانا مؤونة إعادته هنا.

أما الكلام المؤلف فقد أجمع أهل البيان على أنه ما كان سهل اللّفظ واضح المعنى جيد السبك غير مستكره فج ولا متكلف وخم، ولا مما نبذته العرب وعدلت عن ألفاظه البلغاء... أو ما كان بنجوة من تنافر الكلمات والتعقيد في النطق والمعنى ومخالفة القانون النحوي[١٤٧].

ومدار الأمر في الكلام الفصيح على إصابة المعنى المراد باللفظ السهل، وحصول الإفهام؛ قال الجاحظ: وصف أعرابي أعرابيًا فقال: كان والله يضع الهناء مواضع النُّقْب... ويقولون في إصابة عين المعنى بالكلام الموجز: فلان يفل المخزّ ويصيب المفصل أخذوا ذلك من صفة الجزّار الحاذق[١٤٨].

وهذه الصفة التي ذكرها الجاحظ هي منهجه في تفضيل الكلام البليغ، لذلك حين وصف ثمامة بن أشرس - وكان معجبًا به - وصفه بالإبانة وإصابة المعنى المراد بالألفاظ القليلة، فقال: ما علمت أنه كان في أهل زمانه قروي ولا بلديّ كانِ بلغ من حسن الإفهام مع قلة عدد الحروف ولا من سهولة المخرج مع السلامة من التكلف ما كان بلغه، وكان لفظه في وزن إشارته، ومعناه في طبقة لفظه، ولم يكن لفظه إلى سمعك بأسرع من معناه إلى قلبك. [١٤٩] والكلام إذا كان معناه أسرع إلى القلب منه إلى الأذن فذلك سنام الفصاحة وهو المستوى الذي يتعب المجدون أنفسهم في سبيل الوصول إليه.

---

[١٤٧] القزويني، الخطيب: التلخيص، بشرح البرقوقي، دار الفكر العربي، ص٢٤.

[١٤٨] الجاحظ: البيان والتبيين ١/١٠٧.

[١٤٩] المصدر السابق، ١/١١

www.mtenback.com

ولا يكون الكلام بهذه الصفة إلا إذا اجتمعت فيه مقومات البلاغة وذلك ببعده من التنافر وخلوه مما يضعف تأليفه وتجافيه عن التعقيد. أما التنافر فيكون في تأليف الألفاظ، فمن الألفاظ ما يكون سليمًا في نفسه غير معيب في تركيبه، فإذا اجتمع مع غيره مما لا يشاكله أحسست بتنافر وتباعد بسبب قرب المخارج الذي يحدث ثقلاً ظاهرًا على السمع وصعوبة في أداء اللسان. وقد تمثل العلماء لذلك ببعض الشواهد المتنافرة التي لا يتهيأ لأحد أن ينشدها ثلاث مرات متواليات مثل قول الشاعر[١٥٠]:

وَقَبْرُ حَرْبٍ بِمَكَانٍ قَفْرُ وَلَيْسَ قُرْبَ قَبْرِ حَرْبٍ قَبْرُ

فهذا أشبه بالمعاياة والإلغاز، فإذا توالى مثله في الكلام وزاد استحال معه النطق.

وأما ضعف التأليف فيكون بخروج الكلام عن قواعد اللغة المطردة بسبب التقديم والتأخير وكعود الضمير على متأخر وتقديم الصفة على الموصوف والفصل بين المضاف والمضاف إليه، وهذا هو التعقيد اللفظي.

أما التعقيد المعنوي فهو الإساءة في استخدام المجاز، وهو أن يعمد المتكلم إلى التعبير عن معنى فيستعمل فيه كلمة في غير معناها الحقيقي فيخفق في وضعها في موضعها الصحيح فيضطرب التعبير ويلتبس المعنى كالذي يستخدم اللسان في معنى الجاسوس، والمعروف أن الجاسوس مجازًا يسمى العين لأنها آلة البصر الذي تكون به المراقبة وهي وظيفة الجاسوس. وكذلك الذي أراد أن يصف المرأة بالرقة والنعومة فخانته الفصاحة وأخطأ الصواب، ووصف المرأة التي أراد التغزل بها في صفة قبيحة مستهجنة حين قال:

أَلاَ إِنَّمَا هِنْدٌ عَصَا خَيْزُرانَةٍ إِذا لَمَسُوهَا بِالأَكُفِ تَلِينُ

فقد أحال في وصفه لها بأنها تلين تحت لمس الأيدي إلى صفة قبيحة لا توصف بها الحرائر، فأعجزه البيان عما يريد والتبس عليه المعنى الذي يريد الوصول إليه.

---

[١٥٠] الخفاجي: سر الفصاحة ٩٨.

www.mtenback.com

وقد مرّ أبو تمام بقريب من هذا اللّبس في قوله:

جَذَبْتُ نَدَاهُ لَيْلَةَ السَّبْتِ جَذْبَةً فَخَرَّ صَرِيعًا بَيْنَ أَيْدِي القَصَائِد

قال النقاد: إنه ما سكت حتى جعل كرم ممدوحه يخر صريعًا وهذا من أقبح الكلام[١٥١].

وقد كرر الجاحظ الحديث عن التكلف والتعقيد في غير موضع من البيان والتبيين فروى أن جعفر بن يحيى سئل عن البيان، فقال: أن يكون الاسم يحيط بمعناك... والذي لا بد منه أن يكون سليمًا من التكلف بعيدًا عن الصنعة بريئًا عن التعقيد غنيًا عن التأويل. فأشار إلى إصابة المعنى وسلامة اللفظ من التعقيد اللفظي والمعنوي. ونقل عن بشر بن المعتمر قوله: وإياك والتوعّر فإن التوعّر يسلمك إلى التعقيد والتعقيد هو الذي يستهلك معانيك ويشين ألفاظك[١٥٢].

بقي أن نشير إلى وجوب خلو الكلام الفصيح من اللغات واللهجات المستقبحة المستبشعة وخلو لسان الفصيح من عيوب المنطق.

أما اللغات التي لا يستحسنونها فإن تعدد القبائل العربية واختلافها في العادات والتقاليد هو الذي أدّى إلى تشعُّب اللهجات واختلافها. وكانت اللغة التي تكاد تفهمها كل العرب هي لغة قريش أهل التجارة ومواسم الحج والعبادة. نقل السيوطي عن الفراء قوله: كانت العرب تحضر الموسم كل عام وتحج البيت في الجاهلية وقريش يسمعون لغات العرب فما استحسنوه من لغاتهم تكلموا به، فصاروا أفصح العرب وخلت لهجتهم من مستبشع اللغات ومستقبح الألفاظ[١٥٣]. ثم جاء الإسلام فأعطى لغة قريش ثباتًا وزادها ثقة وانتشارا لأنه نزل بها أو نزل أكثره بها؛ لذلك صارت لغة

---

[١٥١] الخفاجي: سر الفصاحة ٦٧.

[١٥٢] الجاحظ: البيان والتبيين ١/١٠٦، ١/١٣٦.

[١٥٣] السيوطي، جلال الدين: الاقتراح، جمعية المعارف العمومية، (١٣٥٩هـ)، ص١٩٨.

www.mtenback.com

قريش اللغة المرضية وتميزت بالانتقاء الذي جعلها تجمع إلى ثروتها ما خفّ وعذب من لغات العرب فازدادت غنى ونقاءً. روى المبرد وابن عبد ربه وغيرهما أن معاوية قال يومًا لجلسائه: من أفصح الناس؟ فقام رجل من السماط فقال: قوم تباعدوا عن فراتية العراق وتيامنوا عن كشكشة تميم وتياسروا عن كسكسة بكر، ليس فيهم غمغمة قضاعة ولا طمطمانية حمير. فقال له معاوية: من أولئك؟ قال: قومك يا أمير المؤمنين، قال معاوية: من أنت؟ قال: رجل من جرُم. قال الأصمعي: وجرم من فصحاء الناس[١٥٤].

واللغات المستقبحة كثيرة كثرة قبائل العرب وفروعها، وما ذكره هذا الجرمي يزال سائدًا في كثير من بيئات العرب، بل هو أساس العامية المنتشرة اليوم في الوطن العربي.

وسنختار هنا أشهر هذه اللهجات في لمحات عاجلات لنبين صفة لهجات العرب ونظام كلامهم الذي يتردد على ألسنتهم ويختلف من قبيلة إلى أخرى مع اختلاف أماكن القبائل وتباعدها.

وأول ذلك كشكشة ربيعة، وقد نسبها ابن عبد ربه إلى تميم وقال: «فإن بني عمرو بن تميم إذا ذكرت كاف المؤنث فوقفت عليها أبدلت منها شينًا لقرب الشين من الكاف في المخرج»[١٥٥]، وعليها قول الشاعر:

الجيدُ جِيْدُشِ والعَيْنَانِ عَيْنَاشِ

أراد جيدك وعيناك. وهذه اللهجة لا تزال منها بقية في دول الخليج العربي والعراق وقبائل الرشايدة أو الزبيدية في شرق السودان. وإن كان العراقيون والكويتيون والرشايدة يقوون الكاف جدًا -حتى تتجاوز مخرج الجيم ولا تكون شينًا محضة، وهذا أمر لا تضبطه الكتابة ولكنه أقرب إلى حرفي (CH) في اللغة الإنجليزية.

---

[١٥٤] ابن عبد ربه: العقد الفريد ٢/٤٧٦.

[١٥٥] المصدر السابق، ٢/٤٧٧

www.mtenback.com

أما الكسكسة وتنسب إلى ربيعة وبكر وهوازن فهي قريبة من الكشكشة ولكنها تكون بتحويل الكاف إلى سين، فيقولون (أبوس وأمّس) يريدون (أبوك وأمك) أو إضافة السين بعد الكاف فيقولون (منكس) كما ذهب إليه ابن عبد ربه[١٥٦].

وفي المملكة العربية السعودية لهجة فاشية في نواحي القصيم تحول فيها الكاف إلى شيء بين السين والتاء فيقولون (أبوتس) وقد تكون في كل كاف ولو وقعت في أول اللفظ مثل (تسيف) إذا أرادوا (كيف).

ومنها العجعجة وتنسب إلى قضاعة وهي قلب الياء المشددة جيمًا، وعليها قول الشاعر:

خَالِي عُوَيْفٌ وَأَبُو عَلِجّ ... الْمُطْعِمَانِ اللَّحْمَ بِالعَشِجّ

أراد (ابو عليّ، والعشيّ) وهذه اللهجة عكس اللهجة الشائعة اليوم في الكويت وبعض دول الخليج من قلب الجيم ياءً، وكلها قديمة قد قرئ بها في القراءات الشاذة كما ذكر ابن خالويه في قولهم (ولا تقربا هذه الشيرة) يريدون الشجرة[١٥٧].

ومنها العنعنة وتنسب إلى تميم وقيس، وهي إبدال الهمزة عينًا كقول ابن هرمة[١٥٨]:

أَعَنْ تَغَنَّتْ عَلَى سَاقٍ مُطَوَّقَةٌ ... وَرْقَاءُ تَدْعُو هَدِيلاً فَوْقَ أَعْوَادِ

وأما تلتلة بهراء فإنهم يقولون تعملون وتفعلون وتصنعون يكسرون أول المضارع[١٥٩] وهي شائعة في كثير من بلدان العرب ولكنها ملحوظة عند الحجازيين.

---

[١٥٦] ابن عبد ربه: العقد الفريد ٤٧٨/٢.

[١٥٧] ابن خالويه: مختصر في شواذ القراءات، ص ١٦.

[١٥٨] ابن جني: الخصائص ١١/٢.

[١٥٩] ابن جني: الخصائص ١١/٢.

www.mtenback.com

ومنها الاستنطاء، وهو من لهجات سعد بن بكر وهذيل والأزد وقيس وأهل اليمن، وتكون بإبدال العين الساكنة نونًا إذا جاورت الطّاء، ومثلوا لها بالقراءة الشاذة (إنا أنطيناك الكوثر) وهي شائعة اليوم في العراق وعليها قول المعري:

لِمَنْ جِيرةٌ سِيمُوا النَّوَالَ وَلَمْ يُنْطُوا يُظَلِّلُهُمْ مَا كَانَ يَنْبُتُهُ الخَطُّ

أما الطمطمانية فتنسب إلى حمير وبعض قبائل العرب كالأزد وطيئ، وتكون بإبدال اللام من (ال) التعريف ميمًا، كقول أبي هريرة يوم حصر عثمان رضي الله عنه «طاب أم ضرب» ومن الحديث «ليس من أمبر أمصيام في أم سفر» يريدون (طاب الضرب) وليس من البر الصيام في السفر؛ وليست من لهجة الرسول ﷺ إذا صح الحديث وإنما حكى لهجة السائل. وعلى هذه اللهجة قول الشاعر[١٦٠]:

هَذَا خَلِيلِي وَذَا يُرَاوِدُنِي يَرْمِي وَرَائِي بِامْحَبْلِ وَا مْسَلَمَهْ

أما الفحفحة فهي في هذيل وتكون بجعل الحاء عينًا ومثلوا لها بحرف شاذ لابن مسعود وهو قراءة (عتى حين) يريد حتى حين[١٦١].

أما العيوب التي تعرض للسان فتحول دون تجويد القول فكثيرة لا يطولها الحصر ولكنا نسوق طرفًا من الألقاب التي أطلقتها العرب على بعض ما يعرض للسان من عيوب حاجزة عن الفصاحة، وقد أبان الجاحظ عن قيمة آلة النطق السليمة في حلاوة الكلام ووقع ذلك على النفس وشرح معاناة واصل بن عطاء في اللثغة التي كان يعانيها في إخراج الراء، فراضها واحتال لها حتى تخلص منها البتة فوسع معجمه اللغوي معتمدًا على مافي العربية من ترادف ومشترك ومجاز حتى استقام له ما أمّل فصفا منطقه وعذب لسانه لأنه كان من أهل الجدل وكان توّاقًا إلى تمام الآلة حتى لا يكون موضع سخرية أو نقص.

---

[١٦٠] أبو عبيد، القاسم، غريب الحديث، بيروت، دار الكتاب العربي، (١٩٧٦م)، ج٤، ص١٩٣.

[١٦١] المبرد: الكامل ٣/٧٦٢.

www.mtenback.com

ومن أهم عيوب المنطق التأتأة، وهي تردد اللسان عند النطق بالتاء، روى الجاحظ عن الأصمعي قوله: «إذا تتعتع اللسان في التاء فهو تمتام»[١٦٢].

ومنها الترخيم وهو حذف صوت من آخر الكلام، وعدّه المبرّد من عيوب الكلام وعرفه بأنه حذف الكلام[١٦٣].

ومنها التعتعة، وهي أن يعيا بكلامه ويتردّد من حصر أو عيّ، ومنه الحديث: «الذي يقرأ القرآن ويتعتع فيه» أي يتردد في قراءته ويتبلّد فيها لسانه[١٦٤].

ومنها الجلع وهو انقلاب غطاء الشفة إلى الشارب، ولهذا قالوا: شفة جلعاء، وقيل الجلع ألا تنضم الشفتان عند النطق بالياء والميم[١٦٥].

ومنها العَلَم والعَلَمة والعُلْمة، والعَلْماء والأعلم: المشقوق الشفة العليا[١٦٦].

ومنها الحصر، وهو العيّ في الكلام، والحُكلة غلظ اللسان وتقبّضه، والحبسة تعذر الكلام عند إرادته، والعُقلة مثل الحُبْسَة[١٦٧] وهي التواء اللسان عند إرادة الكلام. والرُتّة عجلة في الكلام وقلة أناة فيه. وفي حديث المسور أنه رأى رجلاً أرتّ يؤم الناس فأخّره، وقال المبرد: الرتة كالريح تمنع أول الكلام فإذا جاء منه شيء اتصل[١٦٨] والخنة: ضرب من الغنّة كأن الكلام يرجع إلى الخياشيم والأخن من يسبقه النفس إلى الخياشيم. قال ثعلب: ومنه حديث عليّ للحسن وقد شاوره في شيء فأشار عليه

---

[١٦٢] الجاحظ: البيان والتبيين ١/٣٧.

[١٦٣] المبرد، الكامل، ٣/٧٦٤.

[١٦٤] ابن سيده: المخصص ٢/١٢٣.

[١٦٥] ابن سيده: المخصص ٢/١٢٤.

[١٦٦] لسان العرب، مادة (علم).

[١٦٧] الجاحظ: البيان والتبيين ١/٣، ١/٣٩؛ ابن سيده: المخصص ٢/١٢٢؛ المبرد: الكامل ٣/٧٦١.

[١٦٨] ابن سيده: المخصص ٢/١١٨؛ المبرد: الكامل ٣/٧٦٢.

www.mtenback.com

الحسن ألا يفعل فأبى عليّ، فبكى الحسن إشفاقًا فقال: لا تخن خنين الأمة ولا بد مما لابد[١٦٩] والأخن المسدود الخياشيم.

والضجم ميل يكون في الفم وفيما يليه من الوجه، والفقم عيب خلقي في الفم، قال ابن قتيبة: «الفقم أن تتقدم الثنايا السفلى إذا ضم الرجل فاه فلا تقع عليها العليا»[١٧٠].

ومن عيوب اللسان أيضًا اللجلجة وهي ثقل اللسان ونقص الكلام وألا يخرج بعضه في إثر بعض. وهذه وأمثالها عيوب خلقية لايد للإنسان بها، وإنما ذكرناها لتوضيح بعض ما يعرض للمتحدث حين يريد الكلام فيعتريه ما لا يستطيع معه الإفصاح بسلاسة وبيان واضح جلي. ويتعثر في كلامه فيصعب على المتلقي فهم ما يريد المتحدث وذلك هو معنى نقص الفصاحة.

وتلك كانت بعض عيوب اللسان والفم التي إذا كان في المتحدث شيء منها فربما أثر على انسياب الكلام وطلاقته وعدم الإبانة وإن كان صحيح الذهن جيّد العقل. وأصحاب المروءة والهمة يحاولون التخلّص منها بكثرة المران والدربة وتعويد اللسان الحركة فيُنصحون بقراءة القرآن والإكثار من ذلك. وقد يلاحظ في بعض الناس وجود شيء من هذه العلل ولكنهم إذا قرؤوا القرآن وترديد الشعر الفصيح أو ترنموا به أو ترنموا بالشعر زالت عنهم الرُتة والتأتأة وحبسة اللسان؛ ذكر الرواة أن أبا محمّد الفروخي وكان عامل البصرة - كان على درجة من العلم والجلالة وكان مع ذلك تمتامًا يكرر الحرف في كلامه. وركب مرة على جمل ليخطب في الناس، فلم يعجبه ذلك الجمل، فأراد أن يقول: «أخروه أو أخرجوه عني» فكرّر (أخْ أخْ) بسبب التمتمة فبرك الجمل لما سمع (أخ أخ) لأنها هي الكلمة التي تقال للبعير إذا أريد تنويخه. وكان مع ذلك إذا قرأ

---

[١٦٩] اللسان: مادة (خنن)؛ ابن الأثير: النهاية ٢/٨٥.

[١٧٠] الجاحظ: البيان والتبيين ١/٣٧؛ ابن قتيبة: أدب الكاتب ١٣٦.

www.mtenback.com

القرآن أو أنشد الشعر جاء به على خير ما يكون من حسن الأداء وطيب الحنجرة. فقيل له: لو كان كلامك كله قرآنًا أو شعرًا لتخلصت من هذه الشدّة! فقال: هذا طنْز، يعني: سخرية.

عيوب الفصاحة:

الكلام الفصيح المبين نعمة، يزين صاحبه ويبلغه مآربه، ورب كلمة فصيحة فتحت مغلقًا أو خلصت من كربة أو أنجت من هلاك، لذلك كانت العناية بالكلام الفصيح مما أولوه العناية، وذلك بتخليصه من الشوائب، ووضعوه في مواضعه بمراعاة مقام المخاطبين وتخير الأوقات الصالحة المواتية.

وليست الفصاحة أمرًا ينبغ فيه بين يوم وليلة ولاتتأتى بالمصادفة، وإنما هي نتاج دربة طويلة واكتساب خبرة على الأيام يستعين عليها صاحبها قبل ذلك بتنمية محفوظه وتعهد مختاراته، وتدريب اللسان والعقل بممارسة الكلام في جليل المناسبات وصغيرها، وأخذ نفسه بتحبير الكلام واقتضابه وتقليبه وتطويعه ليناسب المقامات على اختلافها؛ وهذا أمر فيه من الصعوبة مافيه إذ هو اختبار لعقل المتحدث لأن لسان المرء رسول عقله. قيل لعبد الملك بن مروان عجل عليك الشيب يا أمير المؤمنين! قال: كيف لا يعجل عليّ وأنا أعرض عقلي على الناس في كل جمعة مرة أو مرتين[١٧١]. يعني مرتين في الأسبوع، في خطبة الجمعة وبعض مايعرض من الأمور. وكان عبد الملك معروفًا بعلوّ الهمّة والغيرة على سلامة اللسان وإلاّ فما يضيره أعرب أو لحن وهو الخليفة. ولكنه يعلم أن اللسان إذا ترك من التعهد أصابته فترة ويصبح صاحبه مدخولاً يعترضه الإخفاق ويجانبه الصواب والتوفيق.

والفصاحة يدخلها العيب من جهتين؛ إحداهما الكلام نفسه، والأخرى المتكلم، أما الكلام فقد تقدمت شروط فصاحته التي إذا انعدمت أو انعدم بعضها أصبح الكلام معيبًا بقدر ما انعدم فيه. يقول الجاحظ: «رأس الخطابة الطبع، وعمودها الدربة

---

(١٧١) الجاحظ: البيان ١/١٣٤.

www.mtenback.com

وجناحاها رواية الكلام وحليها الإعراب وبهاؤها تخيّر الألفاظ، والمحبة مقرونة بقلة الاستكراه»[١٧٢].

وهذا الذي ذكره أبو عثمان هو بمثابة دستور للفصاحة، إن سار عليه ناشد الفصاحة أمن المآخذ التي قال عنها. وهم وإن كانوا يحبون البيان والطلاقة والتحبير والبلاغة والتخلص والرشاقة فإنهم كانوا يكرهون السلاطة والهذر والتكلف والإسهاب والإكثار لما في ذلك من التزيد والمباهاة واتباع الهوى والمنافسة والغلوّ، وكانوا يكرهون الفضول في البلاغة لأن ذلك يدعو إلى السلاطة، والسلاطة تدعو إلى البذاء، وكل مراء في الأرض إنما هو من نتاج الفضول[١٧٣].

فمجمل عيوب البلاغة وملخصها في التكلف والاستكراه والتنطع والتشادق والتكرار والإعادة والإطالة والإسهاب والهذر والإكثار وتصوير الحق في صورة الباطل وتصوير الباطل في صورة الحق، والغموض والتعقيد باستخدام الغريب الوحشي أو الركاكة في استخدام الألفاظ السوقية، واللحن.

أما التكلف فقد رأينا أبا عثمان يعوّل على الطبع، والمتحدث المطبوع الحاذق الواثق باقتداره لا يتوقف ولا يتلجلج، ويجري في الكلام على سجيته، يعينه طبعه على الانسياب والتدفق، فيصل إلى المعنى المراد بأيسر المؤونة. وإذا كان الطبع هو ركن الفصاحة الأول فإن التكلّف - وهو ضد الطبع - عيب كبير من عيوب البلاغة والفصاحة. ويرى قدامة بن جعفر أن مؤلف الكلام البليغ الفصيح واللفظ المسجّع الصحيح كناظم الجوهر المرصّع ومركب العقد الموشح، يعدّ أكثر أصنافه ليسهل عليه إتقان رصفه وائتلافه [١٧٤]. وهذا هو حال المطبوع يستجلب الألفاظ من غير استكراه

---

[١٧٢] الجاحظ: البيان ١/ ٤٤.

[١٧٣] المصدر السابق ١/١٩١.

[١٧٤] قدامة بن جعفر: جواهر الألفاظ، ص ٢.

www.mtenback.com

لتحوي المعاني في اتساق؛ لأن تلخيص المعاني يحتاج إلى شيء من الرفق. وهم يذمون التكلف في كل شيء حتى في الغناء، ولا يكادون يضعون اسم المتكلف إلاّ في المواضع المذمومة؛ قال شاعرهم:

وَحَمّالُ أَثْقالٍ إِذَا هِيَ أَعْرَضَتْ عَنِ الأَصْلِ لاَ يَسْطِيعُهَا الْمُتَكَلِّفُ

فالكلام إذا جاء عفو الخاطر تجاوب معه القلب فوعاه وارتاحت له النفس وقبلته، ولكن التكلف استكراه، والاستكراه يحدث في القلب نفرة فينبو عن المعنى ولا يسيغه، فيفتقد الكلام أهم أركانه ولا يقوم برسالته التي هي البلاغ والوصول إلى المتلقي.

وذمت العرب التنطّع، وهو ضرب من التكلف بغيض يكون في هيئة إخراج الكلام، وأصل التنطّع إخراج الكلام من أقصى الحلق بتعمق ومغالاة تكبرًا، وهو طبع ذمّه الدين، وقد ورد في الأثر: «إن أبغضكم إليّ الثرثارون المتفيهقون». قال ابن عبد ربه: بلغني أن بعض الكتاب عاد بعض الملوك فوجده يئن من علّة، فخرج عنه ومرّ بباب الطاق - محلة ببغداد - فإذا بطير يدعى الشفانين، فاشتراه وبعث به إليه، وكتب كتابًا وتنطّع في بلاغته: «وتَذْكُرُ أنه يقال له شفانين، أرجو أن يكون شفاءً من أنين». فوقّع في أسفل الكتاب: «والله لو عطست ضبًا ما كنت عندنا إلا نبطيًا، فأقصر عن تنطعك، وسهل كلامك»[١٧٥]. وقوله لو عطست ضبًا، يريد أن الضباب من طعام الأعراب وفي بلدهم.

فهذا الرجل تكلف ما ليس من طبعه فجاء كلامه ثقيلاً على قلب المكتوب إليه فجبهه برد لو أنه علم عواقبه لكان أكرم نفسه من ارتكاب ما ارتكبه. وما ترك المرء شيئًا من أدب الإسلام إلا احتاج إليه، فقد قال النبيّ ﷺ: «إن الله يبغض البليغ

---

[١٧٥] ابن عبد ربه: العقد الفريد ٤/١٨٧.

www.mtenback.com

المتفيهق الذي يتخلل بلسانه تخلُّل الباقرة بلسانها» قال الجاحظ: وإنما عاب النبي ﷺ المتشادقين والثرثارين والذي يتخلل بلسانه تخلل الباقرة بلسانها، والأعرابي المتشادق وهو الذي يصنع بفكيه وشدقيه ما لا يستجيزه أهل الأدب من خطباء أهل المدن فمن تكلف ذلك فهو أعيب والذم له ألزم[١٧٦]. فهم يرون أن التشادق من غير أهل البادية نقص لأن هؤلاء يجرون على طبعهم في الكلام وعاداتهم في المخاطبة والذي يقلدهم متكلف لا يبلغ أن يحسن ما أحسنه أهل البداوة مما نشأوا عليه، ولولا أن التشادق فيهم سجية وفطرة لما قبل منهم؛ لأن التشادق عمومًا مذموم. قال الأندلسي: تلخيص المعاني رفق، والاستعانة بالغريب عجز، والتشادق في غير أهل البادية نقص والنظر في عيون الناس عي ومس اللحية هلع والخروج عما بني عليه الكلام إسهاب[١٧٧].

والكلام إذا كان بهذه الصفة من النقص وكذلك إذا كان الخطيب بهذه الهيئة المذمومة، فقد دواعي القبول عند المتلقّين؛ لأن النفس مجّاجة تضيق بما لم تألف.

ومن عيوب الفصاحة التكرار والإعادة. وليس التكرار معيبًا في كل حين، بل إن له مواضع يحسن فيها، وأخرى يقبح فيها. يقول ابن رشيق: أكثر مايقع التكرار في الألفاظ دون المعاني، وهو في المعاني دون الألفاظ أقلّ، فإذا تكرر اللفظ والمعنى جميعًا فذلك الخذلان بعينه[١٧٨].

وعمومًا فإن الممدوح هو ترك التكرار واجتنابه والمذموم بعكس ذلك. قال العسكري ذكر سهل بن هارون جعفر بن يحيى فقال: كان قد جمع في كلامه وبلاغته الهدوء والتمهّل والجزالة والحلاوة، وكان يفهم إفهامًا يغني عن الإعادة. كان لا يتحبّس ولا يتكسّر ولا يتوقف ولا يتلفف ولا يتلجلج ولا يتحلحل ولا يتنحنح ولا يسعل ولا

---

[١٧٦] الجاحظ: البيان والتبيين، ج١، ص٢٧١.

[١٧٧] ابن عبد ربه: العقد الفريد ٢/٢٧٤.

[١٧٨] القيرواني: العمدة، ٢/٧٤.

www.mtenback.com

يترقب لفظًا قد استدعاه من بعد، ولا يلتمس التخلص إلى معنى قد عصي عليه بعد طلبه له[١٧٩].

فالموصوف هنا بلغ في الفصاحة شأوًا لا يدانى، فقد نفى عنه كل العيوب التي تقدم ذكرها مفصلة أو مجملة وعلى رأسها الإعادة والتردد. وإذا كان تطويل الكلام مكروهًا كانت إعادة بعضه أدعى إلى الاستيحاش منه لأن المعاد المكرور أقبح من الجديد المستأنف الطويل. روى ابن عبد ربه وغيره أن ابن السماك تكلّم يومًا وجارية له تسمع كلامه، فلما دخل إليها قال لها: كيف سمعت كلامي؟ قالت: ما أحسنه لولا أنك تكثر ترداده! قال: أردده حتى يفهمه من لم يفهمه؛ قالت إلى أن تُفهّمه من لم يفهمه يكون قد ملّه من فهمه[١٨٠].

وقد أحسنت الجارية ودلت على أن الطبع السليم لا يألف التكرار لأن النفس مجبولة على التحول والإنتقال والتجديد ومجافاة الفضول والنفور عن الزيادة التي لا تحمل فائدة. وإذا لم يكن في التكرار عيب إلا أنه يولّد السأم والملالة والضّجر لكفاه ذلك عيبًا؛ لأن هذه الأمور المتولّدة عنه حاجزة عن الفائدة التي ما أنشئ الكلام إلاّ من أجلها، فإذا سئم المخاطب ترك الأخذ والتلقي عمن يقول تعطلت وظيفة الخطاب؛ لذلك قال العتابي حين سئل عن البلاغة: كل من بلغك حاجته وأفهمك معناه بلا إعادة ولا حبسة ولا استعانة فهو بليغ[١٨١]. وكان الزّهري يقول: إعادة الحديث أشدّ من نقل الصّخر[١٨٢].

وقدمنا أن التكرار لا يقبح في كل حين غير أنّه كالرخصة في الفقه لا يقدم عليها إلا فقيه. فقد يحتاج البليغ إلى تكرار اسم أو عبارة تنويهًا وتنبيهًا وتعظيمًا، أو ترسيخًا

---

[١٧٩] العسكري: المصون، ص ٢٠٦.

[١٨٠] ابن عبد ربه: العقد الفريد ٢/٢٧٥.

[١٨١] المصدر السابق ٢/٢٦٥.

[١٨٢] ابن قتيبة: عيون الأخبار ٢/١٧٩.

www.mtenback.com

لمعنى أو بقصد التهديد والوعيد، أو من باب إظهار التوجع إن كان الكلام رثـــاءً أو تأبينًا، أو على سبيل الاستغاثة والرجاء. وهذا مذهب وقع لكثيرمن الشعراء الفصحـــاء، وهو إن كان بهذه الصفة لم يكن مستقبحًا ولا يعد عيبًا. أنشد القيرواني أبيات امـــرئ القيس التي كرر فيها ذكر (سلمى) في كل بيت، وهو مع ذلك مقبول سائغ لأنه ماضٍ في غرضه من النسيب بسلامة وحسن تخلص، وذلك قوله[١٨٣]:

دِيَارٌ لِسَلْمَى عَافِياتٌ بِـــذِى الخَـــالِ ... أَلَحَّ عَلَيْهَـــا كُـــلُّ أَسْـــحَمَ هَطَّـــالِ

وَتَحْسِبُ سَلْمَىَ لاَ تَـــزَالُ كَعَهْدِنَـــا ... بِوَادِي الخُزَامَى أَوْ عَلَىَ رَأْسِ أَوْ عَالِ

وَتَحْسِبُ سَلْمَىَ لاَ تَزَالُ تَرَى طَـــلاً ... مِن الوَحْشِ أَوْ بَيْضًا بِمِيثَاء محْـــلاَلِ

لَيَـــالِيَ سَـــلْمَى إِذْ تُرِيـــكَ مُنَضَّـــدًا ... وَجِيْدًا كَجِيدِ الرِّيمِ لَيْـــسَ بِمَعْطَـــالِ

فتكرر اسم سلمى ولكنه جاء على جهة التشوّق والاستعذاب فملح وحسن.

يقول الجاحظ: «وجملة القول في التزداد أنه ليس فيه حدّ ينتهى إليه ولا يؤتـــى على وصفه. وإنما ذلك على قدر المستمعين ومن يحضره من العوام والخواص. وقد رأينا الله عز وجلّ ردّد ذكر قصة موسى وهـــود وهارون وشعيب وإبراهيم ولوط وعـــاد وثمود. وكذلك الجنة والنار وأمور كثيرة، لأنه خاطب جميع الأمم من العرب وأصناف العجم، وأكثرهم غبيّ غافل، أو معاند مشغول الفكر ساهي القلب... وما سمعنا بـــأحد من الخطباء كان يرى إعادة بعض الألفاظ وترداد المعاني عيًّا، إلا ما كان من النحاز بن أوس العذري، فإنه كان إذا تكلم في الحمالات وفي الصفح والاحتمال وصـــلاح ذات البين وتخويف الفريقين من التفاني والبوار، كان ربما ردّد الكلام على طريق التهويـــل والتخويف»[١٨٤].

---

[١٨٣] القيرواني: العمدة ٢/ ٧٤.

[١٨٤] ابن عبد ربه: العقد الفريد ٤/١٠٥.

www.mtenback.com

وذكر ابن رشيق التكرار في القرآن فقال: ومن المعجز في هذا النوع قول الله تعالى في سورة الرحمن: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ كلما عدّد منّة أو ذكّر بنعمة كرر هذا[١٨٥]. فهذا تنويه بالنعم العظيمة والمنن الجسيمة وتنبيه عليها، وهو كلام الحق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

فالتكرار إذن مقبول محتمل في مواضع مخصوصة كما ذكرنا، فإذا خرج عنها عُدّ عيبًا.

ومن عيوب الفصاحة الإطالة والإسهاب في غير مواضعه ولغير دواعيه، ذلك لأن من البلاغة عندهم الدلالة على الكثير بالكلام القليل، وحذف الفضول وتقريب البعيد. وجاء في الأثر قول النبي ﷺ: إنّا معشر الأنبياء بِكاءٌ - جمع بكيء وهو القليل الكلام - وكانوا يكرهون أن يزيد منطق الرجل على عقله. سمع خالد بن صفوان رجلاً يتكلم ويكثر فقال: اعلم رحمك الله أن البلاغة ليست بخفة اللسان وكثرة الهذيان، ولكنها بإصابة المعنى والقصد إلى الحجة. وتكلم ربيعة الرأي يومًا فأكثر وأعجب بالذي كان منه وإلى جنبه أعرابي فالتفت إليه وقال: ماتعدّون البلاغة فيكم؟ قال: قلة الكلام وإيجاز الصّواب. قال: فما تعدّون العيّ؟ قال: ما كنت فيه منذ اليوم: فكأنما ألقمه حجرًا... وقيل لبعضهم: مالك لا تطيل الهجاء؟ قال: يكفيك من القلادة ما أحاط بالعنق...وكان جعفر البرمكي يقول لكتّابه: إذا استطعتم أن تكون كتبكم توقيعات فافعلوا [١٨٦]. وكانت التوقيعات من أفضل الكلام وأشرفه، لأن أشرف الكلام حسنًا وأرفعه قدرًا وأعظمه من القلوب موقعًا وأقلّه على اللسان عملاً مادلّ بعضه على كلّه وكفى قليله عن كثيره وشهد ظاهره على باطنه[١٨٧]. لذلك كرهوا

---

[١٨٥] القيرواني: العمدة ٢/١٠٥.

[١٨٦] ابن عبد ربه: العقد الفريد ٢/٢٦١، ٢/٢٦٩، ٢/ ٢٧٥.

[١٨٧] ابن عبد ربه: العقد الفريد ٤/١٥٥.

www.mtenback.com

اللفظ الفاضل على المعنى وطعنوا في الإسهاب حتى قال بعض الصحابة: أعوذ بالله من الإسهاب، فقيل له: وما الإسهاب؟ قال: المسهب الذي يتخلل بلسانه كما تتخلل الباقر ويشول به شولان الروق. وقيل لابن عمر: لو دعوت الله بدعوات، فقال: اللهم ارحمنا وعافنا وارزقنا. فقال له رجل: لو زدتنا يا أبا عبد الرحمن، فقال: نعوذ بالله من الإسهاب[١٨٨]. فبلغ بهم طلب الاختصار والإيجاز المفيد أن يستعيذوا من ضد ذلك وهو الإسهاب والإطالة، وما كان يريد ذلك السائل أكثر من الرحمة والعافية والرزق؟

والعرب تحب التخفيف والحذف وهو باب في لغتهم واسع مطروق، ولكنهم لا يجعلون ذلك واجبًا في كل حال. فرب موقف يكون الإطناب فيه أحمد من الاختصار وأنفع عائدة، وإنما الفصيح البليغ هو الذي يراعي المقام، وهو شرط من شروط الفصاحة مهم. كتب عمرو بن مسعدة كتابًا لضمرة الحروري فنظر فيه جعفر بن يحيى فوقّع: إذا كان الإكثار أبلغ كان الإيجاز مقصرًا. وإذا كان الإيجاز كافيًا كان الإكثار عيًّا. وبعث قائد من قواد مروان بن محمد غلامًا أسود إلى مروان فأمر عبد الحميد الكاتب أن يكتب إليه يلحاه ويعنّفه، فكتب عبد الحميد وأكثر، فاستثقل ذلك مروان فأخذ الكتاب فوقع في أسفله: أما إنك لو علمت عددًا أقل من واحد ولونًا شرًا من أسود لبعثت به[١٨٩]. هذا على ما اشتهر به عبد الحميد الكاتب من التجويد والإصابة، ولكن المعنى يبقى في نفس صاحبه، وصاحب الحاجة أبصر بالتعبير عنها، لذلك جاء توقيع مروان أبلغ من تطويل عبد الحميد لأنه أصاب المعنى من أقرب طرقه.

فليست الإطالة مذمومة في كل حين، والبليغ يختار لنفسه طريقًا من طرق ثلاث: فهو تارة يوجز فيأتي بالمعاني الكثيرة تحت اللفظ القليل، وتارة يأتي بالعبارة

---

[١٨٨] الجاحظ: البيان والتبيين ٩٧/١.

[١٨٩] ابن عبد ربه: العقد الفريد ١٥٦/٤.

www.mtenback.com

مساوية للمعنى المراد فتكون ألفاظه بقدر معانيه، وتارة يسهب ويطنب فتزيد ألفاظه على معانيه، ولكن ذلك لا يكون إلا لسبب كالإيضاح بعد الإبهام أو التفصيل بعد الإيجاز أو التخصيص بعد التعميم أو الاحتراس والاستدراك لتصحيح شيء وقع أثناء الكلام لم يصادف موقعه؛ وكل ذلك يكون بحسب حالات المخاطبين.

وكان في خطباء العرب المشاهير جماعة عرفت بالإكثار منهم إياس بن معاوية ولكثرة كلامه قال له عبد الله بن شبرمة القاضي: أنا وأنت لا نتفق؛ أنت لا تشتهي أن تسكت وأنا لا أشتهي أن أسمع... وقيل له: ما فيك عيب إلا كثرة الكلام، قال فتسمعون صواباً أم خطأً؟ قالوا: لا، بل صواباً، قال: فالزيادة من الخير خير. واعترض الجاحظ على كلامه هذا قائلاً: وليس كما قال، للكلام غاية ولنشاط السامعين نهاية وما فضل عن قدر الاحتمال ودعا إلى الاستثقال والملال فذلك الفاضل هو الهذر وهو الخطل، وهو الإسهاب الذي سمعت الحكماء يعيبونه[١٩٠].

فأنت ترى إجماعهم على كراهة الفضول في البلاغة لأنها تدعو إلى السلاطة وسلاطة اللسان تقود إلى البذاءة؛ لذلك جاءت أمثالهم معبرة عن ذلك فقالوا: من ضاق صدره اتسع لسانه، ومن أكثر أهجر، أي خرج إلى الهُجر وهو القبيح من القول. وقالوا: المكثار كحاطب ليل، وحاطب الليل ربما نهشته حية أو لسعته عقرب. وليس اللسان ولسعاته بأقل من ذلك. وقالوا: أول العيّ الاختلاط وأسوأ القول الإفراط[١٩١]. وهذا كله تنفير من الإطالة بلا مقتضى.

ومن عيوب البلاغة تصوير الحق في صورة الباطل وتصوير الباطل في صورة الحق وهو من الأمور المضرة التي نهى عنها الشرع، فإن فعلها الفصيح ووقعت في كلام

---

[١٩٠] الجاحظ: البيان، ج١، ص١٠١.

[١٩١] ابن عبد ربه: العقد الفريد، ج٣، ص٨١-٨٢.

www.mtenback.com

البليغ لم يكن ثمّة عيب أكبر منها، لأنهم إنما استخدموا الفصاحة في المروءات ومكارم الأخلاق، فإذا قصد البليغ إلى تزوير الواقع وطمس الحقائق وقع في محظور العرف والعادة والدين، وإن دلّ ذلك الكلام المزوّر منه على اقتدار صاحبه وتمكنه من ذم الشيء ومدحه في آن واحد، فهو إن عدّ بلاغه من جهة، عُدّ خروجًا عن الجادة من جهة أخرى. روى الجاحظ قول بعض الربانيين من أهل المعرفة: «أندركم حسن الألفاظ وحلاوة مخارج الكلام فإن المعنى إذا اكتسى لفظًا حسنًا وأعاره البليغ مخرجًا سهلاً ومنحه المتكلم دلاّ متعشقًا صار في قلبك أحلى ولصدرك أملا والمعاني إذا كسيت الألفاظ الكريمة وألبست الأوصاف الرفيعة، تحوّلت في العيون عن مقادير صورها وأربت على حقائق أقدارها بقدر ما زُيّنت وحسب ما زخرفت... والقلب ضعيف وسلطان الهوى قوي ومدخل خدع الشيطان خفيّ»[١٩٢].

فهذه دعوة للاقتصاد في العبارة وعدم الميل مع الهوى حتى يبدو الحسن قبيحًا وينقلب القبح حُسنًا. وقد يحتاج الفصيح العاقل إلى المداراة ولطف التأتّي لاجتناب مواطن الحرج، أحيانًا، وهو أمر يحتاج إلى بديهة حاضرة وجنان ثابت، وهذا ظاهر في كلام أكثر أهل المذاهب، ولكن لا ينبغي أن يعدو طوره حتى يخرج إلى التزييف والبهرجة فتفقد الفصاحة هدفها الأسمى وهو البيان.

ومن عيوب البلاغة الغموض والتعقيد والاستعانة بالغريب الوحشي، أو الركون إلى اللفظ المبتذل السوقي؛ لأن خير الكلام ماسابق معناه لفظه. فإذا أغرب المتحدث انصرف ذهن المستمع إلى فك رموز الكلام وحلّ طلاسمه واستجلاء غوامضه وتتبُّع التوائه واعوجاجه، وفاته المعنى الذي صيغت الألفاظ من أجله.

والكلام الوحشي هو الذي ينفر عنه السمع، والركيك هو الضعيف البنية من الألفاظ، والسوقي هو اللفظ المبتذل الساقط من ألفاظ العوام وكلها ضروب إذا وقعت

---

[١٩٢] الجاحظ: البيان ١/٢٥٤.

www.mtenback.com

في الكلام البليغ هجنته ولو كانت قليلة كالشامة السوداء في الثور الأبيض؛ فإنها عند أهل الفطنة والمعرفة بالفن واضحة متداركة. والذوق السليم هو العمدة في معرفة سلامة الكلمة وحسنها، فالمزنة والديمة - كما مرّ بنا - أخف على السمع وأحسن وقعًا في النفس من (البُعاق) وكلها بمعنى السحابة الممطرة؛ لذلك قال إبراهيم بن المهدي لكاتبه: إياك أن تتبع الوحشي في الكلام طمعًا في نيل البلاغة، فإن ذلك هو العيّ الأكبر. عليك بما سهل مع تجنُّبك ألفاظ السّفل. وقال أبو تمام في هذا المعنى مادحًا الحسن بن وهب بالبلاغة[١٩٣]:

لَمْ يَتّبِعْ شُنْعَ اللّغَاتِ وَلاَ مَشَى ... رَسْفَ المُقَيَّدِ في طَرِيقِ المَنْطِقِ

يَنْشَقُّ في ظُلَمِ المَعَاني إنْ دَجَتْ ... مِنْهُ تَبَاشِيرُ الكَلاَمِ المُفْلِقِ

فوصفه باجتناب اللغات المستبشعة الشنيعة التي تجعل الناطق بها كالذي يمشي في القيد، وإنما أوتي لسانًا مبينًا تضيء فصاحته للمعاني طريقها فتنجلي.

وللجاحظ في تجنب الوحشي والغريب كلمة مشهورة جمع فيها مع الحديث عن هذا العيب الحديث عن عيوب أخرى كثيرة تعرض للفصيح مررنا بأكثرها، يقول: وكما لا ينبغي أن يكون اللفظ عاميًا وساقطًا سوقيًا، فكذلك لا ينبغي أن يكون غريبًا وحشيًا إلا أن يكون المتكلم بدويًا أعرابيًا، فإن الوحشي من الكلام يفهمه الوحشي من الناس، كما يفهم السوقي رطانة السوقي. وكلام الناس طبقات كما أن الناس أنفسهم طبقات. فمن الكلام الجزل والسخيف والمليح والحسن والقبيح والسمج والخفيف والثقيل وكله عربي وبكل قد تكلموا [١٩٤].

وكأن الجاحظ هنا يرى أن تنقيح الألفاظ كلها حتى يكون الكلام كأسنان المشط يفضي إلى التكلف الذي هو عيب كبير من عيوب البلاغة والفصاحة، فيعود

---

[١٩٣] القيرواني: العمدة ٢/٢٦٦.

[١٩٤] الجاحظ: البيان ١/ ١٤٥.

www.mtenback.com

ليؤكد ذلك في كتاب البيان والتبيين بعد أكثر من مائة صفحة فيقول: فالقصد في ذلك أن تجتنب السوقي والوحشي، ولا تجعل همك في تهذيب الألفاظ وشغلك في التخلص إلى غرائب المعاني، وفي الاقتصاد بلاغ... وليكن كلامك مابين المقصّر والغالي؛ فإنك تسلم من المحنة عند العلماء ومن فتنة الشيطان [١٩٥].

فهو لا يميل إلى تخليص الكلام حتى يخرج على شاكلة واحدة لأن المعاني أصناف والناس طبقات فينبغي أن يكون الكلام البليغ الفصيح على أقدار الناس وأحوال المعاني.

ونختم الحديث عن عيوب الفصاحة باللحن وهو أحد عيوب الفصاحة وليس آخرها، وإنما وقفنا عند المهم الملحوظ من تلك العيوب. وقد مرّ بنا الحديث عن اللحن واستبشاع الفصحاء له واستيحاش البلغاء منه. وأقبح اللحن ما وقع من أصحاب التشديق والتمطيط وكذلك لحن الأعراب. أما أهل الحواضر فهو فاش فيهم، وهو في زماننا هذا أشد فشواً وأكثر قبحًا. واللحن عمومًا هجنة للكلام وكله قبيح على الرغم من قول الشاعر:

وَلاَ خَيْرَ في اللّفْظِ الكَرِيْهِ اسْتِمَاعُهُ وَلاَ في قَبِيحِ اللَّحْنِ والقَصْدُ أَزْيَنُ

واللحن خطأ وليس في الخطأ حسن قلّ أو كثر؛ وقد مضى القول فيه فأغنى عن إعادته هنا.

اللغة الفصحى وأثرها:

اللغة ظاهرة بشرية طبيعية، ومقوّم أساسي لقومية كل أمة من الأمم، وهي كما يقول ابن جني «أصوات يعبّر بها كل قوم عن أغراضهم»[١٩٦]. وهي الوعاء الذي يستوعب ثقافة الأمة وفكرها وحضارتها، وهي حلقة الوصل بين ماضي الأمة

---

[١٩٥] الجاحظ: البيان والتبيين ١/ ٢٥٥.

[١٩٦] ابن جني: الخصائص ١/٣٣.

www.mtenback.com

وحاضرها ومستقبلها. ورأس وظائف اللغة توفير التفاهم بين المجتمعات والتواصل بين البشر. وهي وسيلة التعبير عن المشاعر الإنسانية على تنوعها، وهي أيضًا وسيلة التعبد وتوثيق الصلة بين العبد وربّه.

واللغة العربية إحدى اللُّغات الساميّة الحية المشهورة، بدأت كما تبدأ اللغات ومرت بأطوار نعرف بعضها ونجهل بعضها، فهي مزيج من لهجات مختلفة كانت قديمًا محصورة في لغتين؛ لغة أهل الشمال العدنانيين ولغة أهل الجنوب القحطانيين (الحميرية) وقد أفادت العدنانية من الحميرية ثم أصبحت الأولى هي اللغة الأدبية العامة. ثم دخلت في طور آخر حين أخذت القبائل العربية تجتمع ويختلط بعضها ببعض في الحروب والحج والأسواق التجارية والأدبية، فكان لذلك أثر في تهذيب اللغة ورقيها. وكانت قبيلة قريش ذات السيادة الدينية والاقتصادية والاجتماعية تتصل بالعرب وتقتبس منها أسهل لغاتها وأعذبها وأوضحها، وتضيف ذلك إلى لغتها. كما كانت - مثلها مثل اللغات الحية - تأخذ من لغات أهل الشام واليمن وفارس والحبشة وبذلك زادت ثروتها وأصبحت هي اللغة الأدبية السائدة بين العرب. وكان لقريش أثر كبير في تهذيب اللسان العربي، وصارت لغتها أعذب اللغات لفظًا وأبلغها أسلوبًا وأوسعها مادةً لذلك حظيت بانتشار واسع ودارت على الألسنة فأصبحت أفصح لغات العرب وأبينها[١٩٧].

ثم بدأ الطور الثالث للعربية بنزول القرآن الكريم وأكثره بلغة قريش فأتم لهذه اللغة سيادتها وألبسها ثوب الخلود وجمع شمل العرب عليها ونشرها في الدنيا مع جيوش الهداية وجعلها لغة عالمية. وكان للحديث النبوي والعلوم التي نشأت حول القرآن والحديث أثر لا ينكر أيضًا في خدمة العربية وتهذيبها وتطويرها. واستمر هذا

---

[١٩٧] انظر: نحو وعي لغوي، د. مازن المبارك ص٢٥ وما بعدها.

www.mtenback.com

التهذيب والتطوير في العصور التي تلت صدر الإسلام وهي العصور التي بلغ فيها الاهتمام باللغة أشدّه. ثم توسعت الدولة الإسلامية وامتدت رقعتها فدخل في الإسلام أمم من غير العرب. فكان طبيعيًا أن تتأثر العربية بهذا التوسع وأن يشوب قوالبها بعض التغيّر، ونحو ما عرف باللّحن، فدعا ذلك إلى جمعها وتدوينها ووضع قواعدها، فازدهرت ونمت وقوي عودها شيئًا ما إلى أن ضعف أمر الدولة الإسلامية فتبعه ضعف عام في أوجه الحياة كلّها، و لم تكن اللغة بمعزل عن ذلك، حتى حلت حقبة النهضة الحديثة وعاد شيء من العناية للعربية، وعلى الرغم من استمرار تلك العناية إلا أنك ترى الضعف باديًا بين صفوف المثقفين والدارسين إلى يومنا هذا، وهو أمر يرجع إلى أسباب عديدة تتعلق بالمناهج ولغة وسائل التثقيف الجماهيري والهوة السحيقة بين اللغة والمتحدثين بها، وهي فراغ واسع أصبحت العامية تملأ جزءًا كبيرًا منه.

واللغة العربية اختصت بخصائص شاركها فيها غيرها وتفردت هي بأشياء، ومن أهم خصائصها الإعراب وغنى المعجم والشمول والدقة والإيجاز، وكلها أمور لا يكون الكلام فصيحًا إلا بها. وأما الإعراب، فهو التغيير الذي يكون في آخر الكلمة حسب موقعها للإفصاح عن المعاني المختلفة ولتحديد وظيفة الكلمة وموقعها من السياق. ومن فوائد الإعراب أنه شقيق المعنى وله به صلة لا تنفك، فهو يوضحه ويبينه، يقول ابن فارس: «من العلوم الجليلة التي خصت بها العرب الإعراب الذي هو الفارق بين المعاني المتكافئة في اللفظ وبه يعرف الخبر الذي هو أصل الكلام، ولولاه ما ميّز فاعل من مفعول ولا مضاف من منعوت ولا تعجب من استفهام»[198]. وعلى الإعراب تعتمد كثير من توجيهات الكلام، بل إن كثيرًا من أمور الدين وأحكامه ربما اعتمدت على الإعراب في تفسيرها وبيان وظيفتها؛ فبعض الأحكام الفقهية مثلاً تعتمد على التوجيه الإعرابي وكلما اختلف ذلك التوجيه جدّ حكم فقهي مختلف. ومن ذلك مثلاً

[198] ابن فارس: الصاحبي، ص٢١٤.

www.mtenback.com

آية الوضوء المشهورة في سورة المائدة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ﴾[١٩٩]. فقد قرئت كلمة (أرجلكم) بالفتح عطفًا على كلمة (وجوهكم) وعلى هذا يجب غسل الأرجل، وقرئت أيضًا بالكسر عطفًا على كلمة (رؤوسكم) وهنا يجب المسح. لأنك حين عطفت على الأرجل عطفت على مغسول والمعطوف على المغسول مغسول. أما في الثانية فقد عطفت على الرؤوس وهي ممسوحة والمعطوف على الممسوح ممسوح. ومن هنا احتملت الآية حكمين فقهيين لاحتمالها توجهين إعرابيين.

وفي الإعراب تتحكم حركة إعرابية واحدة في تغيير المعنى، فأنت إذا قلت: (فلان متهم بقتل السائق وابنه) لم يعلم اشتراك (الابن) في القتل أو عدمه إلا بالإعراب فإن رفعت كلمة (ابنه) كان الابن قاتلاً وإذا جررتها كان مقتولاً.

فالإعراب بهذه المرونة يتيح للكتاب والشعراء حرية أكبر في وضع الألفاظ مراعين دواعي التقديم والتأخير والأوزان والقوافي وفواصل السجع وموسيقى الكلام عمومًا، دون أن يبقوا مأسورين للقوالب النحوية الثابتة، فالإعراب عون على الإبداع بما يتيحه من مرونة في تحريك الألفاظ حسبما يقتضيه سياق الكلام.

إذن فالإعراب مزيّة لهذه اللغة وليس عائقًا. والدليل على ذلك أن هذه اللغة فهمها القدماء بسلائقهم قبل أن تقعّد القواعد التي وضعت بأخَرة، فقد كانوا ينظمون القصائد وينشئون الخطب الطوال ويقرأون القرآن كما نزل ويتناقلون الحديث الشريف والأخبار معربة. ثم احتاجوا بعد ذلك إلى التقعيد ووضع الضوابط والأحكام التي تعصم من الخطأ المؤدي إلى الإلباس والغموض والمضيع للمعاني والقاتل للمرونة وحرية التعبير، وذلك بعد أن دبّ فيها الضعف بفشو اللحن.

---

[١٩٩] سورة المائدة: ٦.

www.mtenback.com

ومن مزايا العربية أنها من أكثر اللغات غنى بالمفردات والتراكيب والأساليب وذلك الغنى يكسب ناشد الفصاحة ثروة تعينه على التجويد والافتنان. ومن مظاهر غنى العربية كثرة الأسماء الدالة على المسمى الواحد وكثرة المترادفات والمشتركات اللفظية فالناظم أو الناشر إذا خطر عليه موضع إيراد لفظة وكانت اللغة التي ينسج منها ذات ألفاظ كثيرة تقع موقع تلك اللفظة في المعنى أخذ ما يليق بالمعنى والموضع من غير عنت ولا مشقة. وهذا غير ممكن لولا السعة في كثرة الأسماء للمسمى الواحد. وتلك فائدة حاصلة بلا خلاف، على أنه ربما عرض في وضع الأسماء المشتركة فائدة في بعض المواضع، مثل أن يحتاج الناطق إلى كلام يُؤثر أن يكني فيه ولا يصرح، فيقول لفظةً ويوهم بها معنى قد قصد غيره، وهذا وإن قلّ الداعي إليه إلا في اليسير من المواضع[٢٠٠] فلم تجعل اللغة العربية خالية منها بل فيها أسماء مشتركة كقولهم "عين" وما أشبهها ذلك لأن كلمة عين التي تمثل بها الخفاجي هنا لها سبعة عشر معنى، وفي هذا وحده شاهد ودليل على السعة التي نتحدث عنها.

ولما كانت الفصاحة هي حسن اختيار الألفاظ الخفيفة على النفس، السليمة في أداء المعنى كانت هذه السعة من أهم أدوات البلغاء والفصحاء إلى تنقية عباراتهم مما يشينها. ثم إن العربية ترفد هذا الغنى بوسائل توليد إضافية ثلاث هي المجاز والاشتقاق والتعريب. وهذه الوسائل الثلاث يضاف إليها أيضًا تحويل المعاني وانتقالها مثل ما حدث في الألفاظ الإسلامية ومصطلحات العلوم الأخرى التي كان لها أثر كبير في إثراء المعجم اللغوي. ثم يأتي التعريب الذي يدل على حياة اللغة وأنها كائن حي يتفاعل مع ما حوله ويأخذ ويعطي. وقد أخذت العربية من غيرها كثيرًا من الألفاظ التي ذابت فيها وجرت على سننها، ولكنها في الوقت نفسه أعطت غيرها عطاء غير ممنون يظهر في المصطلحات العلمية وكل فن من الفنون كأسماء الأدواء والأدوية والأمراض

---

[٢٠٠] الخفاجي: سر الفصاحة، ص٥١.

www.mtenback.com

ومصطلحات الفلسفة والرياضة والفلك ونحوها. أما المجاز فهو وسيلة من وسائل السعة، فإن الكلمة يكون لها معنى محدد في أصل وضعها فيحمّلونها معنى آخر وينقلونها إلى معنى جديد فقولنا «محمد أسد» تعني «محمد شجاع» ولا تعني أسد في أصل وضعها إلا اسم ذلك الحيوان المعروف، ثم حملت معنى جديداً على سبيل المجاز والاستعارة، وهذا شأن كثير من ألفاظ اللغة، وهو رافد لا غنى عنه في إثراء اللغة مع ما يحمله من لمسات فنية جديدة في الأسلوب المبتدع.

ومن خصائص العربية الإيجاز وهو مما استحسنته العرب ومالت إليه، فكانوا يصلون إلى المعنى المراد من أقصر طرقه. لذلك قالوا: البلاغة الإيجاز، وخير الكلام ما قلّ ودلّ. والبلاغة أيضًا حذف الفضول وتقريب البعيد. وسئل بعض الحكماء عن البلاغة فقال: من أخذ معان كثيرة فأداها بألفاظ قليلة. ولخصوا كل ذلك في قولهم: البلاغة لمحة دالة على مافي الضمير، وقال شاعرهم[٢٠١]:

وَإِذَا نَطَقْتَ فَلاَ تَكُنْ أَشِرًا ... وَاقْصِرْ فَخَيْرُ النَّاسِ مَنْ قَصَرَا

وهم بأقوالهم هذه يجعلون البلاغة والإيجاز شيئًا واحدًا، ويدعون إلى الاقتصاد ويرون الإكثار عيًّا إذا كان الإيجاز كافيًا. وربما أغنتهم الإشارة عن كثير من الكلام وقد يستغنون بالحرف واللفظة الواحدة والجملة القصيرة عن كلام طويل.

وتختص العربية بالشمول والدقة لأن مفرداتها أحاطت بالوجود المادي والمعنوي من جميع جهاته ففيها كلمات تندرج تحتها كل المخلوقات من إنسان وحيوان ونبات مثل العالم والكون والوجود. وفيها ألفاظ تفيد العموم وأخرى تفيد الخصوص، فالحركة مثلاً مفهوم عام يضم كثيراً من أنواع الحركات، ثم يخصص هذا المعنى العام فيطلق على حركة كل عضو ما يناسبها؛ فالخفقان لحركة القلب والنبض لحركة العرق

[٢٠١] ابن عبد ربه: العقد الفريد ٢/٢٦٣.

www.mtenback.com

والاختلاج لحركة العين والارتعاش لحركة اليد وهكذا. والصوت أيضًا مفهوم عام يطلق على كل صوت وإذا أردنا التخصيص قلنا لصوت الماء خرير ولصوت الشجر حفيف ولصوت الضفدع نقيق وصوت الخيل صهيل إلى غير ما هنالك. فالتعميم دليل الشمول والتخصيص دليل الدقة[٢٠٢].

فالإعراب والإيجاز والشمول والدقة من خصائص العربية التي تتيح للفصحاء ميدانًا واسعًا للتفنن والإبداع. وهي من بعد ليست كل مزايا العربية ولكن هذا من باب التمثيل وليعرف الناشئة أن لغتهم فيها الخير كل الخير، وليضربوا صفحًا عن دعاوى العامية التي ينعق بها الجهال والعوام، فإن هذه اللغة محفوظة بوعد الله الذي تعهّد بحفظ كتابه في قوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾[٢٠٣] وما دامت العربية هي وعاء هذا الذكر الذي تكفّل منزله بحفظه فإن من يحفظ ماني الوعاء كفيل بحفظ ذات الوعاء. ولولا هذه العناية السماوية لدونت العامية في بلاد العرب منذ أمد بعيد ولظهرت بها الكتب جهلاً أو نكايةً بالعربية والعرب والمسلمين، ولكن الله تعالى خير حافظًا.

وهذه اللغة الشريفة بهذه الصفة وذلك الحال جديرة بحب أبنائها لها وبذل غاية العناية في الحفاظ عليها والارتقاء بها لأنها لسان العرب ووعاء القرآن والسنة والعلوم، وهي آلة التبليغ وأداة الفصيح، بها يتوصّل إلى المعاني التي ما خلقت الألفاظ إلاّ خدمًا لها. وقد كانت للسلف في ذلك كلمات مشهورات تكشف عن حبهم الصادق لهذه اللغة، فهذا أبو الفتح بن جني وهو فارسي الأصل يقول: «ونعوذ بالله مما يجنيه الضعف في هذه اللغة العربية على من لا يعرفها، فإن أكثر من ضلّ عن القصد حتى كُبّ على منخريه في قعر الجحيم إنما هو لجهله بالكلام الذي خوطب به، ثم لا يكفيه

---

[٢٠٢] انظر: نحو وعي لغوي: د. مازن المبارك، ص ٥٧؛ ولمع من أسرار لغتنا: د. جميل سلطان ص ٤٣.

[٢٠٣] سورة الحجر: ٩.

www.mtenback.com

عظيم ماهو عليه وفيه، دون أن يجفوها ويعرض عمّا يوضحه له أهلوها، نعم ويقول ما الحاجة إليها؟ وأين وجه الضرورة الحاملة عليها؟ نعوذ بالله من التّتابع في الجهالة والعدول عمّا عليه أهل الوفور والمثالة»[٢٠٤]. بل ذهب محمد بن أحمد الخوارزمي – و لم يكن عربيًا – إلى أبعد من هذا إذ يقول: لئن أهجى بالعربية أحبّ إليّ من أن أمدح بالفارسية. وقال الثعالبي في خطبة كتابه (فقه اللغة): «إن من أحب الله أحب رسوله المصطفى ﷺ ومن أحب النبي العربي أحب العرب ومن أحب العرب أحب اللغة العربية التي بها نزل أفضل الكتب على أفضل العجم والعرب، ومن أحب العربية عني بها وثابر عليها وصرف همته إليها». وروى ابن خالويه في مخطوطة القراءات بإسناده ما جاء في الأثر: «أحبّوا العرب فإني عربي والقرآن عربي وكلام أهل الجنة عربي»[٢٠٥].

وأقوال هؤلاء السلف تدلك على أن محبة العربية عندهم عقيدة، وما بلغت عندهم هذه الدرجة إلا بما أسرتهم به من بلاغتها ولما أدهشتهم به من فصاحتها. وكان من فرط حبهم للعربية وإحسانهم لها أنهم وقفوا حياتهم لها يحفظون غريبها ويقيدون شواردها ويروون طرائفها ويتناشدون آدابها، وكان أحدهم يتحامى الوقوع في الخطأ كما يتحامى الذنوب، وينفرون من ذلك كما ينفر الصحيح من الأجرب، ولهم في ذلك أحاديث تدلّ على علوّ هممهم ورغبتهم في الصواب وتوقهم إلى فصاحة الخطاب وبلاغة الجواب. وكانوا يرون الإعراب حلية وجمالاً ويرون اللحن هجنة. وقد روي عن الرسول ﷺ قوله: «أرشدوا أخاكم فقد ضلّ» وذلك حينما سمع أحدهم يلحن فجعل الخطأ في الإعراب ضلالاً. وكان عمر يقول: تعلموا العربية فإنها تزيد في المروءة. وكان عبد الملك بن مروان يرى اللحن في قبحه كالتفتيق في الثوب وكالجدري

---

[٢٠٤] ابن جني، المحتسب في شواذ القراءات، تحقيق: علي الجندي وآخرين، دار سزكين، (١٩٨٦م)، ج٢، ص٢٥٠.

[٢٠٥] ابن خالويه: مخطوط إعراب القراءات السبع، الورقة ٢٤/أ.

www.mtenback.com

في الوجه. وهو الذي قيل له: قد عجل عليك الشيب فقال: شيبني ارتقاء المنابر مخافة اللحن. وكانوا يقولون: ليس للاحن حرمة، وقيل للحسن إن لنا إمامًا يلحن فقال أميطوه أو قال أخروه فإن الإعراب حلية الكلام[٢٠٦].

ومعلوم بالضرورة أن دراسة النحو لا تكسب المرء الفصاحة ولا تزيد في اللغة ولكنها المقوّم للغة الفصيحة به تعتدل تراكيبها وتتزن أساليبها. ومن هنا كانوا يرون دراسة الإعراب من المروءة لأنه سياج الفصاحة الذي يحميها من الخطل. قال ابن سلام: ما أحدث الناس مروءة أفضل من طلب النحو. بل كانوا يرون أن من يتعلم الحديث ولا يتعلّم اللغة كالذي له برنس وليس له رأس. وكان عمر رحمه الله يقول: لا يقرئ القرآن إلا عالم بالعربية[٢٠٧].

وكان أهل الفصاحة وعلماء اللغة ممن جرى الإعراب في دمائهم يستغربون اللحن ويستهجنونه حتى يرى بعضهم أن الخروج عنه قد يكون سببًا في حرمان الرزق. فقد رووا أن أعرابيًا دخل السوق فسمع أهله يلحنون في كلامهم فقال: سبحانك اللهم! يلحنون وترزقهم؟! ويروى عن أبي الأسود الدؤلي أنه رأى أعدالاً من تجارة كتب عليها (لأبو فلان) فقال سبحان الله! يلحنون ويربحون[٢٠٨].

والمعلوم أن ألفاظ اللغة إنما وضعت أوضاعًا مخصوصة لتدل على معانٍ مخصوصة فمهما حوّلت شيئًا عن وضعه تبع ذلك تحول في المعنى الذي وضع له. فقد ذكروا أن الوليد بن عبدالملك كان لحانًا فدخل عليه رجل من أشراف قريش، فقال له الوليد: من خَتَنك؟ بتحريك التاء، فقال الرجل: فلان اليهودي. فقال الوليد: ويحك ما تقول؟ قال لعلك إنما تسألني عن خَتْني يا أمير المؤمنين، هو فلان بن فلان[٢٠٩] فتحريك التاء أفسد

---

[٢٠٦] ابن عبد ربه: العقد الفريد ٢/٤٨٠.

[٢٠٧] ابن عبد البر: بهجة المجالس ١/٦٦.

[٢٠٨] المصدر السابق ١/٦٦.

[٢٠٩] ابن عبد ربه: العقد الفريد ٢/٤٨٠.

www.mtenback.com

المعنى لأن (خَتَنَ) بالتحريك هو الفعل أما (خَتْن) بالإسكان فهو الصهر والنسيب. فإذا كان ذلك كذلك في وسط الكلمة فكيف بتغيّر الحركات في أواخر الكلم التي هي محل الإعراب وتوجيه اللفظ الذي يتبعه توجيه المعنى؟

وإذا كان الإعراب جمالاً في موضعه فإن تكلفه ووضعه في غير موضعه هو معيب أيضًا مثل التفاصح في غير موضعه كما عيب على عيسى بن عمر الثقفي، وكان صاحب تقعير في الكلام وكان أخذه عمال ابن هبيرة في جناية ووقعت عليه عقوبة، فكان يقول لابن هبيرة والسياط تلهب ظهره: والله إن كانت إلاّ أثيابًا في أسيفاط قبضها عشاروك [٢١٠]. وهذا من العويص الذي نزل في غير منزله.

وما كان حرصهم على الإعراب إلاّ لأن طالب الفصاحة إذا أكثر الرواية وتوسع في الحفظ وجوّد الاختيار وأحسن الإعراب تصرّف في الكلام كيف شاء وانقادت له أزمّة المعاني متى ما طلبها، وأهّله ذلك إلى أن يرتقي في درجات البلاغة وأقدره على إصابة المعاني بأيسر المؤونة. فإن زاد على ذلك بتعلم فنون القول ووجوه البلاغة بمعرفة الفصل والوصل والإيجاز والإطناب تكاملت فيه آلات الفصاحة واللسن لأن ذلك إنما يحصل بمجموع ما تقدم.

والاحتفال باللغة الفصحى التي هي وسيلة الفصاحة إنما هو في النهاية بغرض الإبلاغ والإفهام؛ لأنهم جعلوا الألفاظ خادمة للمعاني، وإنما يجتهد الناس في اكتساب الفصاحة لهذا الغرض؛ لذلك قال عمرو بن عبيد: إنك إذا أردت تقرير حجة الله في عقول المكلفين وتخفيف المؤونة على المستمعين وتزيين المعاني في قلوب المستفهمين بالألفاظ الحسنة، رغبة في سرعة استجابتهم ونفي الشواغل عن قلوبهم بالموعظة الناطقة من الكتاب والسنة كنت قد أوتيت فصل الخطاب [٢١١]. ويحتاج الأديب إلى

---

[٢١٠] ابن عبد ربه: العقد الفريد ٢/٤٧٩-٤٨١.

[٢١١] ابن عبد ربه: العقد الفريد ٢/٢٦٠.

www.mtenback.com

هذا الأسلوب الرشيد في إيصال رسالته للناس مهما كان مضمونها ومهما تباينت أحوال المتلقين. ولن يجد الناطق وسيلة ناجعة إلى ذلك إلاّ اللغة الفصيحة العالية.

فاللغة الفصحى إذن هي مادة الفصاحة وعمودها وبهاؤها وزينتها. ولن تجد ناطقًا بالعامية قيل عنه إنه فصيح، وإن أنشأ الخطب وطوّل القصائد واستعار لسان سحبان وائل وذكاء إياس بن معاوية. والمتحدث بالعامية إن أفهم طائفة ممن يحسنون الفهم عنه فلن تكون عاميته هذه عند كثير من أبناء لغته الأم إلا ضربًا من الهذيان وجنسًا من الكلام المستغلق؛ وهذا أمر يشهد له الواقع المعاصر. ولن يفلح أهل العربية إلاّ إذا جعلوها لغة المخاطبة والإعلام والفن والأدب والدواوين. وإلا إذا احتفوا بها وأشربوا الأجيال حبّها ويسروا لهم طرق اكتسابها وتعلمها. فعند ذلك لن يرضوا بغيرها لأن الذين عقوها ونفروا منها من أبنائها إنما كان ذلك لبعدهم عنها وجهلهم بها، ومن جهل شيئًا عاداه.

موقع الدكتور مرزوق بن تنباك
www.mtenback.com

www.mtenback.com

الفهارس

موقع الدكتور مرزوق تنباك
www.mtenback.com

www.mtenback.com

موقع الدكتور مرزوق بن تنباك
www.mtenback.com

www.mtenback.com

فهرس الآيات القرآنية

السورة	الآيـــــة	رقمها	الصفحة
البقرة	﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ... الآية﴾	٣٧	٤١
	﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ... الآية﴾	٢٠٤	١٢
آل عمران	﴿هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ... الآية﴾	١٣٨	١٥
المائدة	﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ... الآية﴾	٥-٦	٩٧
الأعراف	﴿وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ... الآية﴾	١٥٩	٤٥
الأنفال	﴿اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ... الآية﴾	٣٢	٢٧
الحجر	﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ... الآية﴾	٩	٧٤
الإسراء	﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ... الآية﴾	٨٨	٢٢
مريم	﴿وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا... الآية﴾	٩٧	١١
طه	﴿وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي يَفْقَهُوا قَوْلِي... الآية﴾	٢٧-٢٨	٣٩
الأنبياء	﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا... الآية﴾	٢٢	٣١
	﴿خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ... الآية﴾	٣٧	١٩
الأحزاب	﴿فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ... الآية﴾	١٩	١١
الزخرف	﴿أَوَمَنْ يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ... الآية﴾	١٨	١٥
الحجرات	﴿وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ... الآية﴾	٩	٧٤
الرحمن	﴿الرَّحْمَنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ. خَلَقَ الْإِنْسَانَ. عَلَّمَهُ... الآية﴾	١-٤	١٥
الحشر	﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ... الآية﴾	٧	٥٢
المنافقون	﴿وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ... الآية﴾	٤	١١
القلم	﴿ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ... الآية﴾	١-٢	٣٣
الجن	﴿وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا... الآية﴾	١٥	٧٤

www.mtenback.com

موقع الدكتور مرزوق بن تنباك
www.mtenback.com

www.mtenback.com

فهرس الأحاديث

الحديث	الصفحة
«أرشدوا أخاكم ...»	١٧
«أعربوا في كلامكم ...»	١٧
«اغد عالماً أو متعلماً...»	٦٧
«أنا أفصح العرب ...»	٧
«أنا خيار من خيار ...»	٢٣
«إنا معشر الأنبياء بكاءٌ...»	٨٩
«إن أبغضكم إليّ الثرثارون ...»	٨٥
«إن الله يبغض البليغ ...»	٨٥
«إن من البيان لسحرا...»	٢٤
«البلاء موكل بالمنطق...»	٢٩
«الحرب خدعة...»	٢٩
«الذي يقرأ القرآن...»	٨١
«رحم الله امرأ...»	٣٥
«فيم الجمال ؟...»	٥٢
«كفى بالصحة داء»	٢٩
«لعلّ بعضكم أن يكون ألحن ...»	٥١
«ليس الخبر كالمعاينة..»	٢٩
«ما أعطي الرجل شراً من طلاقة اللسان..»	٥١
«ما كان رسول الله يسرد كسردكم ...»	١٧
«المرء كثير باخيه..»	٢٩
«المرء مخبوء تحت لسانه..»	٢٩

www.mtenback.com

الحديث	الصفحة
«من كان يؤمن بالله ...»	٣٥
«الناس بزمانهم أشبه منهم بآبائهم...»	٢٩
«الناس كأسنان المشط»	٢٩
«وهل يكبُّ الناس ...»	٣٧

موقع الدكتور مرزوق بن تنباك
www.mtenback.com

www.mtenback.com

فهرس الأشعار

أول البيت	القافية	اسم الشاعر	العدد	الصفحة
		ـ ء ـ		
كسالى	عناءُ	ـ	١	١٢
إنما	الظلماءُ	ابن قيس الرقيات	٣	٤٢
دع	الداءُ	أبو نواس	١	٥٢
يرمون	الرقباء	ـ	١	٥٤
		ـ ب ـ		
عصا	نجبُ	يحيى بن نوفل	١	٥٠
وما طربي	فأطربُ	المتنبي	١	٥٨
ورأيت	نابِ	أبو تمام	٧	٢١
		ـ ج ـ		
أعذني	علاجا	النمر بن تولب	١	١٤
خالي	بالعشج	ـ	١	٧٩
		ـ ح ـ		
رأوه	القبيحُ	نضلة السلمي	٢	٧
وقلت	رزّحُ	عروة العبسي	١	٧٣
أتصحو	بالرواحِ	جرير	١	٥٨
		ـ د ـ		
أنا ابن	تعودُ	ـ	٢	٥٠
ولولا	عوّدِي	طرفة	١	١٨
يا سرحة	مسدود	إسحاق الموصلي	٢	٧٠

www.mtenback.com

أول البيت	القافية	اسم الشاعر	العدد	الصفحة
جذبت	القصائد	أبو تمام	١	٧٧
أعن	أعوادِ	ابن هرمة	١	٧٩
		ـ ر ـ		
ترى	هصورُ	العباس بن مرداس	١	١٣
وما المرء	مصور	ـ	١	٣٧
أقام	فطيرُ	ابن نباتة	١	٧٢
وقبر	قبرُ	ـ	١	٧٦
فإذا	قصرا	ـ	١	٩٩
وإذا انطقت	قصرا	ـ	١	٩٩
لعمري	القبرِ	أراكة الثقفي	٤	٤٤
		ـ ص ـ		
وكم	شخصه	ـ	٢	١٣
		ـ ط ـ		
لمن	الخط	المعري	١	٨٠
شرطي	قسطُ	البحتري	١	٧٤
		ـ ع ـ		
وتقول	بوزعِ	جرير	١	٦٩
وكنّا	يتصدّعا	متمم بن نويرة	٢	٤٣
		ـ ف ـ		
وحمال	المتكلّفُ	ـ	١	٨٥

www.mtenback.com

أول البيت	القافية	اسم الشاعر	العدد	الصفحة
		ـــ ق ـــ		
أمحمد	معرقُ	قتيلة بنت النضر	٣	٤٠
سأستعدي	بساق	أمية بن حرثان	٢	٤٥
لم يتبع	المنطق	أبو تمام	٢	٩٣
		ـــ ل ـــ		
خير	دليل	ـــ	٢	٢٩
جليت	الأجلُ	أبو تمام	١	٧٢
وللشعراء	دليله	ـــ	٣	٤٩
وأصبحت	صقيلا	الأسدي	٢	٤٩
صفراء	الأحول	أبو النجم	١	٥٨
فلأذربيجان	نكالُ	أبو تمام	٢	٧٠
ديار	هطالِ	امرؤ القيس	٤	٨٨
		ـــ م ـــ		
ما في	الإبرام	ـــ	٢	٣٤
أشارت	تتكلم	ـــ	٢	٣٢
وكائن	التكلم	زهير بن أبي سلمى	٢	٣٧
يشق	أيم	البحتري	١	٧٤
		ـــ ن ـــ		
كفى	لسانُ	ـــ	٢	١٣
ولا	أزينُ	ـــ	١	٩٤
هذا ابن	قطينا	جرير	١	٥٨
ألا إنما	تلين	ـــ	١	٧٦

www.mtenback.com

أول البيت	القافية	اسم الشاعر	العدد	الصفحة
		ـ هـ ـ		
سكنوا	يلقاه	ـ	٣	١٤
وكأس	بها	الأعشى	١	٥٢
		ـ ي ـ		
لا يغرّنك	دويّا	سديف بن ميمون	٢	٢٦

موقع الدكتور مرزوق بن تنباك
www.mtenback.com

www.mtenback.com

فهرس الأمثال

المثـــل	الصفحة
«أبلغ من قس»	١٦
«أخطب من سحبان وائل»	١٦
«أفصح من قس»	١٦
«أسير من مثل»	٣٠
«أعيا من باقل»	١٦
«أفصح الصبح لذي عينين»	٧
«أول العي الاختلاط»	٩١
«المكثار كحاطب ليل»	٩١
«من أكثر أهجر»	٩١
«من ضاق صدره اتسع لسانه»	٩١

موقع الدكتور مرزوق بن تنباك
www.mtenback.com

www.mtenback.com

موقع الدكتور مرزوق بن تنباك
www.mtenback.com

www.mtenback.com

المصادر والمراجع

ابن الأثير، ضياء الدّين:

المثل السائر، تحقيق: أحمد الحوفي وآخر، القاهرة، دار نهضة مصر.

الثعالبي، أبو منصور عبد الملك بن محمد:

فقه اللغة، القاهرة، مطبعة الاستقامة.

الجاحظ، أبو عثمان:

البيان والتبيين، تحقيق: عبدالسلام هارون، القاهرة، مكتبة الخانجي، ١٩٨٥م.

الجرجاني، الإمام عبدالقاهر:

دلائل الإعجاز، تحقيق: محمود محمد شاكر، القاهرة، مكتبة الخانجي، ١٩٨٤م.

الجهشياري، أبو عبد الله محمد بن عبدوس:

الوزراء والكتاب، القاهرة، ١٩٣٨م.

الحصري، أبو إسحاق إبراهيم بن علي:

زهر الآداب، تحقيق: علي محمد البجاوي، عيسى البابي الحلبي.

ابن خالويه، أبو عبدالله الحسين:

مختصر في شواذ القراءات، برجيستر اسر.

الخفاجي، أبو محمد عبدالله بن سنان:

سر الفصاحة، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٨٢م.

ابن خلدون:

المقدمة

www.mtenback.com

ابن خلكان:

وفيات الأعيان

الرافعي، مصطفى صادق:

إعجاز القرآن، بيروت، دار الكتاب العربي، د.ت.

الزبيدي، أبو بكر محمد بن الحسن:

طبقات النحويين واللغويين، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف.

الزمخشري، محمود بن عمر:

أساس البلاغة، بيروت، دار صادر، ١٩٧٩م.

ابن سيده:

المخصص.

السيوطي، جلال الدين:

المزهر، تحقيق: محمد جاد المولى، القاهرة، دار إحياء الكتب العلمية.

ابن عبد ربه الأندلسي:

العقد الفريد، تحقيق: عبدالسلام هارون وآخرين، بيروت، دار الكتاب العربي، ١٩٨٣م.

العسكري، أبو أحمد الحسن بن عبدالله:

المصون، تحقيق: عبدالسلام هارون، الخانجي بالقاهرة.

القالي، أبو علي إسماعيل بن القاسم:

الأمالي، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٧٨م.

ابن قتيبة، أبو محمد عبدالله بن مسلم:

عيون الأخبار، القاهرة، دار الكتب، ١٩٢٥م.

www.mtenback.com

القيرواني، أبو علي الحسن:

العمدة في محاسن الشعر وآدابه، تحقيق: محمد محيي الدين عبدالحميد، بيروت، دار الجيل، ١٩٥٥م.

المبرّد، أبو العباس محمد بن يزيد:

الكامل، بيروت، مكتبة المعارف، ١٣٨٦هـ.

المرزباني، أبو عبد الله بن عمران:

الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء، القاهرة، ١٩٨٥م.

ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين بن مكرم:

لسان العرب، بيروت، دار صادر، ١٩٩٢م.

ابن منقذ، أسامة:

لباب الآداب، تحقيق: أحمد محمد شاكر، القاهرة، دار الكتب السلفية، ١٩٨٧م.

الميداني، أبو الفضل أحمد بن محمد:

مجمع الأمثال، تحقيق: محمد محيي الدين عبدالحميد، مطبعة السّنة المحمدية، ١٩٥٥م.

الوشّاء، أبو الطيب محمد بن يحيى:

الموشّى، بيروت، دار بيروت، ١٩٨٠م.

www.mtenback.com

موقع الدكتور مرزوق بن تنباك
www.mtenback.com

www.mtenback.com